وارد بدر السالم

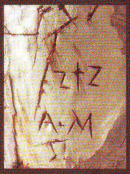

امرأة... بنقطة واحدة

رواية

دار تنوير
للدراسات والنشر والتوزيع

عنوان الكتـاب: امرأة بنقطة واحدة
اسـم المؤلـف: وارد بدر السالم
الموضـوع: روايـة
عدد الصفحات: 114 ص
القيـاس: 14.5 × 21.5 سم
الطبعـة الأولى: 1000 / 2018 م - 1439 هـ
ISBN: 978-9933-38-033-5

© جميع الحقوق محفوظة لدار نينوى
Copyright ninawa

دار نينوى
للدراسات والنشر والتوزيع
سورية . دمشق . ص ب 4650
تلفاكس: 2314511 11 963+
هاتـف: 2326985 11 963+
E-mail: info@ninawa.org
ninawa@scs-net.org
www.ninawa.org
دار نينوى للدراسات والنشر والتوزيع
Ayman ghazaly

العمليات الفنية:
التنضيد والتدقيق والإخراج والطباعة - القسم الفني: دار نينوى

لا يجوز نقل أو اقتباس، أو ترجمة، اي جزء من هذا الكتاب، بأي وسيلة كانت من دون إذن خطي مسبق من الناشر.

وارد بدر السالم

امرأةٌ بنقطةٍ واحدة

روايــة

2018

صدر للمؤلف

الروايات:

١-"جمهورية مريم" - منشورات المتوسط – إيطاليا- ٢٠١٨

٢- "الحلوة" - دار نينوى - دمشق - ٢٠١٧

- دار سطور - بغداد - ٢٠١٧

٣- "عذراء سنجار" - دار ضفاف - بيروت – ٢٠١٦

٤ - " تجميع الأسد" – الدار العربية للعلوم - ناشرون – ثقافة- بيروت – ٢٠١٤

٥ - " عجائب بغداد" –الدار العربية للعلوم - ناشرون- ثقافة - بيروت – ٢٠١٢

٦ - "شبيه الخنزير" - الحضارة العربية - القاهرة - ٢٠٠٤ - الطبعة الأولى

- فضاءات - عمان- ٢٠٠٩ - الطبعة الثانية

- سطور - بغداد - ٢٠١٥ - الطبعة الثالثة

٧- "مولد غراب" – الحضارة العربية – القاهرة – ٢٠٠٤ - ط١ ط٢ ط٣ بغداد

- سطور - بغداد – ٢٠١٦- الطبعة الرابعة

٨- "طيور الغاق " دار الشؤون الثقافية – بغداد – ٢٠٠٠.

تسلسل الماضي حسب ظهوره:

١. الطبيعة أنثى عذراء ١١
٢. سيدة البياض ١٥
٣. نستمر في البقاء ١٩
٤. كتمساح هرم يسير أمامها ببطء ٢١
٥. لم يبقَ وقتٌ كثير للحياة يا عجوزي الجميل ٢٥
٦. أشجارٌ زرقاء في ذاكرتي ٤١
٧. مقصّات الذكريات ٥١
٨. نحن الغد لو بقينا أحياء ٥٣
٩. البط الوديع ببياضه الناصع ٥٧
١٠. قُبلة الماضي السعيد ٦٣
١١. رومانسيات إلكترونية ٦٧
١٢. نتحرك في الزمن ٦٩
١٣. كأنّ الماضي اختفى ٧٥
١٤. الـ (ز) المنسرح كساق بنقطته الوحيدة ٨١
١٥. الجندي الذي مرّ من هنا ٨٣
١٦. حارس البط ٨٧
١٧. نقطة الزاي العظيمة ٩٧
١٨. شمس الغروب الذهبية ١١١

انطفأت شمس الغروب، ولم تبقَ إلا ذوائب برتقالية شاحبة، حجبتها الأشجار العالية. وكان الظلام يتسارع ليغطي الحديقة وغاباتها الصغيرة، وقد انسدل كلوحة غامضة. مُحيت ألوان الأشجار فجأة في عتمة مباشرة، وبقي الشابان حائرَيْن ومرتبكَيْن وخائفَيْن، حينما تهاوى جذع الرجل النحيل على الطين ببطء كشجرة مقصوصة.

تلوى قليلاً، وتعفّر في الطين، بعد أن انزلقت أصابعه من جذعٍ ممدود كان يتشبث به بقوة، وكان باينباغه قد التوى على صدره، وتهدّل على الطين مع جسده النحيل. ولم يسمع الشابان سوى أنّاتٍ خفيفة، يختلط فيها حرف الزاي الذي كرره أكثر من مرة بشفتين مرتجفتين، لكنه همد بعد قليل بهدوء، كتمثال مطروح في خاتمة دراما مسرحية؛ غير أنّ أحد الشابين المرتبكين، وقد تلعثم الكلام في فمه، تشجّع إلى حد ما وهو ينحني على الرجل الممدد في الطين، ليستلّ من جيب سترته الداخلي أوراقه الشخصية.

كان صاحبه قد ركن الكمان مقطوع الأوتار على جذع الشجرة، ووجّه حزمة ضوء ناعمة من مصباح الموبايل؛ فقرأ الآخر بعُجالة اسم الرجل (...) ورقمه التقاعدي الطويل (.....) وعنوان السكن (....) ووظيفته السابقة (بروفسور) ورقم الهاتف (....) وجهة الإصدار (.....) وتاريخ تولده (1948)، وعلى الوجه الآخر تفاصيل متشابهة، سوى أن اسم الوكيل (زمن).

الحـــزنُ:

أنْ تستيقظَ قبلَ دموعِكَ

فتجد الصبـــاحَ راحـلاً

الطبيعة أنثى عذراء

(1)

تأففت السيدة زمن، ودمدمت بعصبية، كأنها تبدد اختناقاً لازمها من طول المسافة التي قطعتها سيارة التاكسي إلى حديقة العاصمة الكبيرة، بسبب الزحام الذي أغلق بعض الشوارع الرئيسية.. بلد تعبان.. بلد مقرف.. ازدحامات.. تفتيش.. فيما بقي العجوز؛ أستاذ الجماليات المخضرم والجالس في المقدمة؛ صامتاً على مدار الوقت المزدحم بالتقاطعات الإجبارية بين فواصل الشوارع والتفتيش العشوائي للمركبات من قبل سيطرات عسكرية متعاقبة؛ ربما لإحساسه بالدفء داخل السيارة الصفراء، أو بسبب شروده بأفكار قديمة عبرت معه خمسة عقود طويلة اكتنزتها ذاكرته، محاولاً استحضار بعضها هذا اليوم - بمناسبة الذكرى الخمسين للزواج من السيدة زمن - وهو يصطحبها إلى حديقة العاصمة الكبيرة وغاباتها الصغيرة المتفرقة فيها، لاستذكار ولادة حب ظل عامراً لنصف قرن، مثل دفتر سميك امتلأ بالكتابة والرسوم والتخطيطات والأرقام في مشوار العمر الطويل. وبقيت الصفحة الأخيرة فارغة، بيضاء، نقية، ناصعة إلى الآن. بقي يتطلع إلى السماء الغائمة عبر نافذة السيارة؛ ناظراً بين لحظة وأخرى إلى ساعته البتينة التي تشبه عين الإوزة؛ متوقعاً أن تمطر بغزارة، من دون أن يشعر بحنق السيدة، ولم يسمع دمدمتها العصبية المتتالية.. بلد عسكر.. سيطرات.. تفتيش.. رعب.. قبل أن تصل التاكسي بصعوبة إلى البوابة المؤدية إلى الحديقة المفتوحة بغاباتها الصغيرة المتقاربة التي فارقها منذ زمن

غير قصير. تلك الغابات التي يعرف العجوز؛ أستاذ النقد والجماليات في كلية الفنون الجميلة والمتقاعد حالياً؛ أنها تسمية أطلقها العشاق على الحدائق الصغيرة المتفرقة، بسبب كثافة أشجارها وظلالها المتوحدة وتاريخها القديم؛ كما لو تشكل غابات منفردة داخل الحديقة العملاقة التي يرتادها البغداديون، فتكون أشبه بالمظلات العالية، تخفي بين أشجارها الطويلة المتقاربة العاشقات الهاربات من الكليات والمدارس، والموظفات اللواتي يسرقن ساعاتٍ زمنية سريعة من دوائرهنّ، ليكتبن حروفهنّ الأولى داخل القلوب المليئة بالحب والجمال، على أمل أن تبقى بصماتٍ فورية صادقة على لحظاتٍ مسكونة بالحب والحياة والجمال، كشواخص حروفية مرسومة داخل قلوب حبرية تنطبع على الجذوع، مثلما تنطبع على القلوب الحيّة النابضة بالأشواق.[1]

(2)

في سريرته يستدرك الأستاذ الجمالي السبعيني المتقاعد، بأن الحديقة مترامية الأطراف كانت معسكراً للجيش الملكي فيما مضى، بجنودٍ وثكناتٍ

---

١ - يوضح لسيدته في تلك الأيام. وكان عليه أن يكون حكيماً:

- إنها غابات بالفطرة والتداول والإحساس.

- لكنها حدائق صغيرة داخل حديقة كبيرة.. فقط أشجارها عالية.

- عندما لا يرانا أحد بين مجموعة أشجار حتى لو كانت ثلاث أشجار، سيكون هذا هو مفهوم الغابة فطرةً وجمالاً.

- اممم

- الغابة مثل المرأة غامضة.. يصعب الدخول إليها من دون دليل!

- امممممم

وخفارات ليلية وذخيرة خلّب وتدريبات صباحية وأنفاس لاهثة وأجساد متعرقة ولون ملوكي خاكي يبعث على الكآبة. ولا تزال تاريخاً يذكّر بأنها حديقة العاصمة الوحيدة، كثيرة الأشجار والممرات والأنهار والطيور والبحيرات، لكنهم يسمون حدائقها الصغيرة غابات لكثافة أشجارها وتقاربها حد الالتصاق، وربما لإحساس فطري عند العشاق بأن المدينة ليس فيها غابات كما يحدث في مدن كبيرة أخرى، فكانت هذه الحدائق الفرعية المزروعة بكثافة شجرية، تشبيهاً ضمنياً لغابات واسعة في أمكنة ما من العالم الواسع، ولأن الغابات تخفي في ظلالها وعتماتها الخفيفة الكثير من الأسرار الصغيرة التي يمارسها عشاق المدينة أو القادمون من أطرافها في نزهات الجمعة والعطل الرسمية.

كان يدرك، مع هاجسٍ لا يفارقه، بأن الحديقة زمن.. مستقبلٌ يأتي ويمضي إلى الوراء، تاركاً الكثير من التجاعيد على الحياة والحروف المقضومة والقلوب الصغيرة المستدقة هنا وهناك على الجذوع.

(3)

كان يقول لسيدة الزمن الطويل، بأنّ الغابات واحات تشبه اللوحات والمنحوتات والقصائد والنساء الجميلات. إنها أفكار طفولية، وضعتْها الطبيعة أمامنا لنتأملها ونتنفسها ونحلم بها لنعود إليها بحاسة أخرى في المرة المقبلة.. تأملي الحواس في داخلك كم نضجت يا زمن.. تأملي كم أضافت إليك الطبيعة، وكم غيّرت من روح الطفلة فيك. نحتاج الجمال لكي لا نتشوّه، ونحتاج الطبيعة لتكون أكبر من الحقيقة المجردة المهلكة التي

نعيشها.. الطبيعة أنثى عذراء بثياب بيضاء أو خضراء أو زرقاء. الغابات شطحات ظريفة في الطبيعة. إنها لفظ جمالي أكثر من كونه حقيقة على الواقع، أطلقه العشاق والعاشقات والمحبون والمحبات ذات يوم غير معروف، للتخفي والتستر من عيون الفضوليين والوشاة.

هو يوم ساهم فيه على مدار أيام عشقه الأولى للسيدة زمن؛ يوم كانت طالبة معه تسرق معه أوقات قصيرة في غابات الحديقة، وتدوّن معه مشاعر متشابهة، وترسم قلبيهما مخترَقين بسهمٍ أحمر جاف، وتضع حروف اسميهما على جذوع الأشجار في كل مرة. مثلما كانت ذات يوم موديلاً لمنحوتته التجريبية الوحيدة "زمن" وهو يستعجل الخطوط والانفعالات التي ضخّها في أوردتها الناعمة، ليخلق منها زمناً أكبر من عمرها العشريني الصغير، ويتسامى كثيراً على عمره المقارِب، قبل أن يترك أصابع الطين في يديه، ويتوجه إلى أصابع الكتابة بجمالياتها النبوية الفائقة، فانسحبت "زمن" إلى الماضي، وبقيت زمن حيّة في تاريخه الشخصي، وهي تقرض معه خمسين سنة من الحب.

سيدة البياض

(1)

هرعت السيدة زمن إلى مدخل الحديقة قبل عجوزها الجمالي المنحوت بهيكله الضعيف الملازِم له، تهمهم بكلمات بقيت في حنجرتها ولم تُسمعها للسائق الذي كان محشوراً وراء مقوده، وهي تدسّ جسدها بين شجرتين تتقدمان الحديقة بأغصانٍ متشابكة وملتفة على بعضها؛ مسقوفة بسقيفة ورقية عريضة كالصوباط المتماسك. فيما أطلت جداريتان من السيراميك ساطعتان وجاذبتان بألوانهما الحارّة انفرشتا كجناحين كبيرين عند مدخل الحديقة. وبقي جسدها يصطك ويرتعش وهي تنتظر العجوز، منسحبة إلى داخل تنورتها وبنطالها المتعاقبين على جسدها، ولا تزال العصبية ذاتها تجعلها تهمهم كحصانٍ مخنوق.. شرطة.. جيش.. موت.. سيطرات.. أووف.. وكان الهواء أكثر برودة مما توقعت، غير أنها ظلت مقتنعة بلباسها الأبيض في هذه الذكرى الذهبية، التي حرصت فيها على أن تُري نحّاتها العجوز زيها قبل خروجها هذا الصباح الممطر، بتنورة بيضاء ينسدل تحتها بنطلون أبيض، مضيفة قبعةً دائرية بيضاء على رأسها مزينة بشريط وردي يدور على القبعة، ثم ينعقد من الأمام على وردتين صغيرتين لونهما أبيض تتباعدان بين طرفي القبعة كمصباحين ثلجيين صغيرين.

اقترح العجوز أن تستبدل اللون الأبيض، لأنه لا يتلاءم مع المطر، ورأى أن القبعة الدائرية غير مناسبة وتظهرها كسيدة إنكليزية تخطّت الثمانين عاماً

بكثير، وأنها تشبه السيدة تاتشر. فامتعضت من هذا التشبيه المنفّر لها، واستبدلتها بقبعة مضلّعة مخططة بألوان كثيرة، لكنها أبقت على تنورتها البيضاء وبنطالها الأبيض:

- البياض روحي يا رجل.

(2)

تحمل باقة ملونة ومشطّبة من زهرة البتونيا، جمعتها من حديقة البيت، حريصة على ضمها برفق على صدرها كقطة وديعة. وعلى كتفها تتدلى حقيبة جلدية بيضاء خفيفة مطرزة بورود حمراء وكحلية ناعمة؛ فيما ظل العجوز يدرج وراءها ببطء مثقلاً بمعطفه الأسود الذي دخل فيه ولم يزرّره، وهو يتلقى أول زخة من الرذاذ المرشوش،؛ وهواءٌ بارد يرفع باينباغه كذيل يريد أن ينقطع، ملتوياً على كتفه الأيسر، لكنه بقي ممسكاً بوردة صغيرة عالقة بغصن إصبعي حاول أن يستميلها إلى داخل معطفه مفتوح الأزرار ويحميها من رشّات الرذاذ.

(3)

لم يتطلع إلى السماء المكتظة بالغيوم، بل كان يحث ساقيه النحيلتين نحو السيدة، ونسمات باردة تهبّ وتتخلل المكان فتزيده برودة. وكان قلة من زائري الحديقة الذين تواجدوا في هذا الصباح قد احتموا بمظلات الأشجار، قبل أن يسقط المطر، في الوقت الذي كانت السماء فيه ملبدة بالغيوم الثقيلة التي أسبغت على الصباح ظلاً داكناً بارداً واسع الأطراف. وهو ما جعل السيدة زمن تدسّ ساعدها تحت ذراعه المعطفية، وما زالت

تهمهم من التأخير الذي أجبر سائق التاكسي على أن يصرف وقتاً غير قصير في زحام الشوارع والسيطرات العسكرية وحواجز التفتيش المفاجئة وهدير السيارات التي كانت تشرخ أذنيها.

- بلد مسعور. فوضى. لا نظام فيه.

(4)

قال العجوز وهو يدس السماعة الصغيرة في أذنه العريضة:

- شوفي زمن.. خلينا في المناسبة الحلوة، ولا ترهقي قلبكِ بالعصبية الزائدة.

نظر إلى عين الإوزة في معصمه، واطمأن إلى الوقت المبكر.

- قرفت من هذا البلد. كله جيش وسيطرات وشرطة.

تودد وهو يحتضنها:

- المهم سلامة قلبك.. أنت مريضة حبيبتي، والشوارع هي هكذا منذ سنوات.

- بلد وحشي.

تأكد العجوز من ثبات السماعة في أذنه العريضة، وأرجع الذيل الذي لم ينقطع على صدره، وقال كمن يريد أن يغير مزاجها العصبي الذي وجده غير مناسب في يومٍ كهذا:

- قبل خمسين سنة التقينا هنا. أتذكرين؟

ثم تمتم بفرح طفولي:

- ما أشبه الليلة بالبارحة.

تلطف وجهها قليلاً، وتغيرت سحنتها إلى حد جعل العجوز يُكمل:

- العمر يسير كقطار سريع.. ما أسرع الزمن يا زمن.

دفعت بجسدها إليه بما يشبه احتضانه، مطوقة خصره النحيف، محاوِلة أن تنتظم أنفاسها في الجو البارد تحت ظلال الأشجار الطويلة، وباقة البتونيا تبث عطراً خفيفاً. وكان المطر قد بدأ يهطل، واكتست السماء بسحب رمادية ثقيلة. وسيدة البياض السبعينية تشعر بنشوة المطر ولحظة الجمال التي غرقت فيها بكامل روحها، مستعيدة حيوية الطالبة التي كانت تخشى العتمة والظلال واحتجاب رقائق الشمس عن يومياتها السريعة المكتظة بأصغر التفاصيل.

- ما أقرب الماضي.. ما أقرب المستقبل يا زمن.. كلاهما نحن.

نستمر في البقاء

داهمتهما أغنية شعبية معروفة بصوتٍ مرتفع ملأ المكان ضجيجاً من أحد الأكشاك الصغيرة المصبوغة بكثيرٍ من الألوان البراقة، ترك في وجهها شيئاً من العبوس، وانعقدت تجاعيد وجهها، كأن شيئاً وخزها وبدّد روح الفرح فيها. فشدّ عجوز الجماليات على عضدها مغيّراً مسار قدميه بارتباك، عارفاً مزاجها الذي يتعكر من الأصوات الناشزة التي تداهمها في أي مكان؛ حينها يتشتت ذهنها وتعصر رأسها لتحاصر الارتباك والفوضى التي تجتاحها والصداع الذي لا تقوى على مقاومته.

- أووف... قلة ذوق.. مجانين.

ظل حاجباها معقودين وتجاعيدها مقطبة شاعرة بالنرفزة، والصوت المرتفع بالموسيقى الفوضوية العالية يقطع عليها لحظتها السعيدة، ويُربك فيها أول فرح قديم حاولت أن تحييه بأعجوبة الحياة التي امتدت فيها إلى يوبيلها الذهبي، لكنها تجاوزته مع خطوات العجوز المتسارعة بشعوره الفوري من هذه النرفزة التي اجتاحت سيدته البيضاء. انحرفا فوراً إلى اليسار ككتلتين رخوتين، وسارا على بساطٍ من الأعشاب المبللة وأمامهما أشجار السدر الهرمة المتهدلة بجذوعها الخشنة، محاذرَيْن من بقع المياه المنتشرة والأطيان العالقة على الأعشاب، كما كانا يفعلان منذ وقت طويل، بدأ في ممرات الكلية وحدائقها الصغيرة حتى هذه اللحظات الممطرة والباردة التي تأخذهما إلى مدى الذكرى البعيدة التي تطفح الآن كما لو حصلت بالأمس.

- التقينا هنا أكثر من مرة.. ما زلت أتذكر ذلك.

قال العجوز وكان ما يزال حريصاً على وردته الحمراء من البلل:

- كنتِ أصغر بخمسين سنة تقريباً.

هزّت رأسها، لكن العجوز تدارك مسرعاً:

- وأنا أيضاً كنتُ أصغر من هذا العمر.

تختمر السنوات في روحيهما وتنفتح الآن حيّة في مكانٍ أثير افترقا عنه سنواتٍ طويلة وعادا إليه كطائرين سعيدين في انفتاح الصباح بالمطر، ليقول لها حكمة يرتجلها كما تعرفه، سريعَ البديهية، حاذقاً ولماحاً على مدار العمر المشترك بينهما:

- نستمر في البقاء مادامت هناك ذاكرة لمكان في البلاد قبل أن يطمسوه.

كتمساح هرم
يسير أمامهما ببطء
(1)

قادهما ممر جديد، على جانبيه تستقيم أشجار اليوكالبتوس الأسطوانية الملساء، إلى رصيف حجري، تقع على شماله بحيرة صغيرة يترسب الماء في قعرها، خالية من البط القديم. لم ينتبها إليها وإلى جرذ فاطس وحمامة متيبسة تطفو على الماء المترسب، وبدت بقع خضراء داكنة راكدة، ومع أن قطرات المطر كانت تبقر سطحها، إلا أنها بقيت متماسكة من دون أن تتفتت كجلدة لاصقة.

التفّا حول حوض شجري متفرع يشكل شبه دائرة وسط المكان، وحاولا أن يخرجا منه بسبب البرد اللاذع إلى حوض آخر أقل سعةً وانفتاحاً.

- قد تمطر كثيراً هذا اليوم.

كانت تتطلع إلى السماء من تحت سقوف الأغصان العالية.

- أتفاءل بالمطر.. أحبُّ المطر.

مطرٌ دائمٌ في الحياة وفي السنوات التي مرت. أزرعُ المطر في قلبي وأنتظر موسم الإزهار. وكانت المواسم تتلقح بالحب الأبيض مع نثار الطين المتطاير من بين يديه وكلماته الحكيمة وطاقته الخلاّقة في تبويب الحياة إلى أولويات، ليس أولها المطر ولا آخِرها المطر.

"المطر جزءٌ من جمال الطبيعة، لكنه ليس هو الطبيعة".

"أحبُّ المطر. يشعرني بأنني سعيدة، وأن المستقبل يصنعه المطر".

"لا تكوني شاعرة كثيراً. الشعر مخادع. إنه إلهام غير معروف المصدر".

"كلما يأتي هذا الموسم تتبدل روحي، وينبت في داخلي عشبٌ أبيض وطيور شقراء".

"المرأة عادةً تحب مظهراً واحداً في كل موسم".

"مَن قال هذا؟".

"الطبيعة ومواسمها المتعاقبة".

"قبل سنتين كان هناك جفافٌ في البلاد ولم تمطر.. أذكر أني بقيتُ كئيبة من جملة شعرية قالها أحدهم فيها إن البلاد التي ليس فيها مطر يقلُّ فيها العشاق أو يغادرونها".

"صح.. حتى العصافير تهرب منها".

ينظر العجوز إلى الوردة، حريصاً على ألا يمسها المطر، كأنها ذكرى شخصية مع سيدته التي لم تفارقه كل ذلك العمر الطويل، ثم يدسّها تحت معطفه قريباً من قلبه المتعب.

- كنّا شباباً وعشاقاً في ذلك الوقت.

وأضاف، كما لو أنه يؤكد حقيقة:

- أتذكّر أنه كان يوماً ممطراً أيضاً حين التقينا هنا لقاءنا الأول.

ثم بدا أكثر حماسةً:

- كانت تلك من أجمل الأيام.

وأكمل هامساً باختلاج أنفاسه:

- لكنها مضت للأسف.

مالت عليه أكثر:

- لا تقل هذا.. سأبكي.

اختلج قلبها، وشدّت خصره أكثر، ومالت برأسها عليه قليلاً، كما لو أنها تنصت إلى مطر سابق، يدلف الآن في مسامات رأسها غزيراً وأليفاً، ينقر على وجهها وثيابها القصيرة، ويجمع روحها بين كفيها الصغيرتين لتقدمها إليه.. خذها.. خذني إليك يا رجل الحرف والمطر.. هذه هي روحي الصغيرة بحجم قلبي الصغير. اصنع منها طينةً وعجينةً.. انحتني كيفما تشاء.. وترى نفسها في لحظة التجلي مشدودة إلى خصره النحيل، الذي حملها سنواتٍ كثيرةً، وأصابعه التي تطوقها كأنها أصابع ساحر امتلكها في منحوتة الحرب، واستخرج منها سرّ الحب الذي ظل ناصعاً وبراقاً، يطوي الزمن بحكمة العاشقَين ذاتهما الذين قادهما، في توقيتٍ متشابه، ممشىً ضيق تصطف على جانبيه أشجار جوز الهند الملساء غير المثمرة، وهي أكثر قرباً من بعضها، لكنها متفاوتة وغير منتظمة وليست على خط واحد. وقد جعل العابرون من هنا أكثر من ممر وأكثر من ممشى يضيق ويتّسع كتمساح هرم يسير أمامهما ببطء. ولم يكن رصف الحجارة الحديث كافياً لأن يجمّل مثل هذه التقاطعات، بل أسبغ على المكان لحظات حجرية، كما ترى السيدة وهي تستدعي عقوداً بعيدة في لحظة الحديقة لتراها بشكل آخر، مثلما يرى العجوز تلك اللحظات القديمة التي كانت فيها المماشي تغطيها شتلات الجوري والسوسن والزنابق الفصلية وأوراق الأشجار وزهورها الصغيرة الساقطة

بفعل المطر. وكانت الأعشاب الطبيعية تُشعره بخفة روحه، وهو يسير عليها كأنه يمشي على أرض من الإسفنج أو العشب الطري.

- الطبيعة أم.

يهمس لها كابنٍ بار، وتدمع عيناه.

(2)

توقف الرذاذ نسبياً، فانعطفا إلى رصيف قصير يقود إلى أشجار أخرى، جذوعها أكثر سُمكاً وطولاً وأغصانها أكثر تشابكاً. ولا تزال السيدة تحيط خصر العجوز، وعيناها الضعيفتان تنفتحان على اخضرار الحديقة الفسيحة. وبين فترة وأخرى تعدّل من أوضاع قبعتها المضلّعة، وفي رأسها أطياف كثيرة تقترب وتدنو كثيراً من ذاكرة قد يعرفها العجوز وهو يدبُّ معها بصمت؛ بذاكرة مشوشة ومكان مشترك، حريصاً على الوردة الوحيدة التي جلبها من حديقة البيت، حينما اختارها بعناية قبل يومين ورشّ وريقاتها بالماء البارد قبل أن يقطفها صباحاً، ومتأكداً من أن الباينباغ يرقد على صدره باستقامة.

لم يبقَ وقتٌ كثير للحياة
يا عجوزي الجميل
(1)

وقفا تحت مظلة منزوعةٌ بعض أضلاعها من الأعلى، لكنها كانت ساتراً لتمنع قطرات المطر من الوصول إليهما. وحرصت السيدة أن تُبقي ساعدها تحت ذراع المعطف، وهي تتأمل الغيوم الثقيلة والأشجار المغسولة، كما لو انبثق فيها قبسٌ وردي خفيف، غالبَ روحها المثقلة بالأعوام الطويلة ومتاعبها التي طوتها في أرشيفها الشخصي، فوجدت نفسها سعيدة إلى حد كانت تنظر فيه إلى العجوز، كما لو أنه طائر يريد اختطافها من نفسها.

- أنا سعيدة يا رجل.

- أنتِ سعادة طويلة في حياتي.

- ما كنتُ أظن أن الزمن سيطول إلى هذا الحد.

- الحب يطيل الأعمار حبيبتي.

ترى ذلك صحيحاً إلى حد كبير وهي تغالب الحياة سبعين سنة متتالية، ساعية لأن تبقى منحوتة العجوز الشابة التي كانتها ذات يوم في واحة حب وأمل وسلام، وهي ترسم روحه وروحها على عشبة خضراء وترسلها إليه مشفوعة بالجمال والطفولة، فتجد أنّ الحب ينبت كعشبة، كالأمل الأخضر الذي تقرأ عنه أو تسمع به.

تقول له أمام مرآتها.. كنتُ عشبة، فصرتُ أنثى خضراء. وكنت أحتاج إلى الحياة، بمعنى أنني أحتاج إلى المستقبل معك، حتى أستمِرَّ في الحياة كالعشبة المنزوية تحت الجدار وهي تجاهد لأن تُخرج رأسها إلى الشمس، لكنها خائفة وغير واثقة من الحياة. أقدام كثيرة تمر مسرعة فتدوسها. تقمع حريتها ونموها وتسحق اخضرارها. لكنك كنتَ قريباً مني، شمساً أسعى إليها مترددة. أمد رأسي من الجدار وأخاف. بيننا جدار يعزل الشمس. تلك هي طفولتي شقية ومترددة وعاشقة. منحوتة استخرجْتَها من الطين وصنعتها على هواك. أنت ذكي وبارع ورائع. منحوتتك الطين تيبست، وتيبست أصابعك بعدها. امتصت النارُ رطوبَتها وماءَها. صنعتَ أنثى الحرب، وحصدت أنثى الحياة. تلك معادلة مرنة، لكنها عظيمة وصعبة. كسوتني بالحياة وأنا دُمية من رماد. ببغاء سعيدة وغير سعيدة. لكن قفصي كان يتسع يوماً بعد آخَر وأبوابه تنفتح يوماً بعد يوم. تنفستك مبكراً، وأنا في ذلك القفص، ولم أغير هوائي النقي حتى اليوم. أنا أنثى الحرب التي لم تحارب ولم تجرحها شظية، لكنها مرت من بين الشظايا مرةً بحكمتكَ ومرة بالحظ. أخطأتني الكثير من الشظايا، لكنها قد تكون ذبحت الكثير من الأشجار ومزقت أسماءنا وحروفنا الأولى.

هكذا علمتني يا سيد الطين والحرف.

(2)

أشجار نخيل متباعدة، رؤوسها مفروشة كمراوح ساكنة، تملأ الفراغات بينها أشجار استوائية متوسطة الطول؛ أشجار جوز الهند بقاماتها الملساء الرفيعة، تليها الصنوبرات المخروطية مبعثرة تقفز من

فراغ إلى فراغ، ثم تتكاثف أشجار الصفصاف الناعمة، تقابلها بعشوائية أشجار ملساء للنخيل الملكي، فتغطي ومضات سريعة من البحيرة البعيدة، لكنها جميعاً تشكل كثافة شجرية متماسكة، وتنشر ظلاً بارداً تراه السيدة زمن مثلما يتحسسه العجوز السعيد بوردته الحمراء الوحيدة وباينباغه المستقر على صدره. وأمامهما بأقل من متر، عصفور ميت يوحي بأنه سقط من أعلى الشجرة الطويلة التي تستدق أمام المظلة، أشعرها بنفور عابر وهي تتملى الجثة الصغيرة المعفرة بالطين؛ فحثّت عجوزها للخروج من تحت المظلة باتجاه أكشاك بدت غير متساوية بحجومها، والمساحات التي تشغلها مرصوفة بالتتابع تفصل بينها أرصفة صغيرة مشغولة بكراتين المياه المعدنية المتروكة، ولا تعرض الكثير من بضاعتها بسبب المطر.

تمتم العجوز بامتعاض:

- العشوائيات تخرّب المكان.

وكأنما كان يكظم غيظاً منذ أن دخل الحديقة وعبر أكشاكاً صغيرة وكافتيريات غير منتظمة الكراسي ومجسّمات حيوانية وتماثيل جبسية وحديدية، لم يستطع أن يطيل النظر إليها، كاتماً شعوراً بالخيبة التي لا يريدها أن تستولي عليه في يوم الذكرى الذهبية مع سيدته البيضاء، التي لا تزال متمسكة بسعادة طافحة على وجهها المتغضن. متحولة إلى غرنوقة بيضاء تدب بفرح بين روائح متداخلة لا تستطيع أن تنساها. النساء أكثر حرصاً على مناسباتٍ كهذه. أيقونات دائمة المواسم تشعُّ بالفرح، وجواهر تبدّد وحشة المكان المزمن الثقيل بكل شيء.

امتنع عن الاسترسال. لا يزال قادراً على ضبط مزاجه تحت المعطف لولا البانباغ الذي يتطاير من على صدره بين لحظة وأخرى، فيعيده مستقيماً على صدره بأصابعه النحيفة.

لم تقل السيدة شيئاً، واكتفت بأن مدّت بصرها إلى هيجان المطر النازل بشبكات بيضاء وهو يمرق من خلل أغصان أشجار السدر واليوكالبتوس، ويتناثر رذاذاً ينسفح على كل شيء. فيزيد من وتائر أصوات الأغصان غير المتناغمة بارتفاعات أشجارها غير المتساوية أيضاً، كما كان العجوز يفكر وجسده الضعيف يهتز.

- لم تكن أشجارنا هكذا.

بقيت السيدة صامتة متأملة رشيش المطر وأصوات الغابات الصغيرة التي تتناهى إليها كصور قديمة تقترب من روحها، محاوِلة أن تستدرجها وتبقيها في روحها المتفتحة.

- اعتقد أنهم حاولوا تجديد القديم فيها بأشجار أخرى.

كانت أشجار السدر متدلية الأغصان، كأنها أكتاف نازلة من جسدٍ هرِم.

- لا أفهم معنى أن تكون أشجار السدر في حديقة كهذه!

وكمن يستدرك:

- لا جذوعها جميلة، ولا أغصانها رشيقة.

لم يكتفِ بل أضاف:

- حتى أوراقها مثل الأفلاس كأنها بصمات.

وضع نظارته الرصاصية على عينيه، وهو يتأمل المكان بعينين ضعيفتين، لكنهما كانتا كافيتين ليرى المساحة المأهولة بالأشجار غير المتناسقة.

- يؤلمني هذا.

كانت تنظر معه:

- ليس صحيحاً أن نملأ كل فراغ بشجرة. الفراغ هو الفراغ. إنه جزء من الجمال.

ثم همس بحنق، كأنه يخاطب آخرين لا تراهم السيدة:

- دعوا الأشجار تتنفس.

أمر اعتادته السيدة زمن من ملاحظات يومية عبر سنوات طويلة لأستاذ النقد والجماليات في أكاديمية الفنون الجميلة، منذ أن كانت طالبة عشرينية معجبة بسلوكه الشخصي والفني، حتى كبرت معه بين الأطيان الفنية، قبل أن يتركها منغمساً في طين الحروف وجماليات النقد الكثيرة، فهو دقيق وحريص على أن تكون الحياة منظمة ومتناسقة بفلسفة شخصية تعشقها؛ وإنْ كانت مملة ومعقدة أحياناً؛ ولن تعارضه إلا فيما ندر.

- المهم أن تبقى البيئة خضراء.

- ليس هذا صحيحاً. هذه عشوائيات في التصميم لتخريب هذا الأثر الجميل في العاصمة.

قالت تناكده بود كأنها تذكّره:

- أنت علمتني بأن في العشوائيات جمالياتٍ غير مقصودة، وهذا أحد أسرارها.

التفت إليها، وقال ببطء وحرص:

- لا توجد قوانين للجمال، لكن ربما وضع العلماء قوانين رياضية للعشوائيات لتبريرها جمالياً، وفي هذا العصر الغريب نحتاج إلى أكثر من طريقة لنفهم أسس الجمال أولاً.

كانت تنظر إلى عينيه القديمتين وهو يواصل:

- لنسمّها تلقائية. ربما أفضل من تسميتها بالعشوائية، فهناك من يظن أن عدم التنسيق في بعض الأحيان فوضى، لكنه في الحقيقة جوهر سري لها، بل في رحمها الكثير من التناسق. اجعلي طاقتك إيجابية، وسترينها متناسقة، ولن تريها عشوائية كهذه الغابة العشوائية في ظاهرها، لكنها مكتظة بالتناسق العفوي، وأظن أن الفلاح القديم زرعها بفطرة الجمال في روحه.

وأضاف مسرعاً:

- كنت أقصد الفلاح القديم.. ابن الأرض وملحها. ابن الحديقة القديمة، وليس الفلاح العاطل عن العمل الذي يحفر بالحاسوب هههه.

فهمت إشارته ولوعته الداخلية، فأدار عينيه ويديه إلى أكثر من مكان:

- سابقاً كل شيء وُضع في مكانه الصحيح. وحتى المسافات محسوبة بفطرة وغريزة جغرافية.

وجد أنّ به حاجة لأن يضيف:

- التناسق الذي نحبه ربما هو عشوائي في بعض حلقاته.

كانت تغور في تلك العينين الضعيفتين:

- الكون كله رسْمُ فنان ساحر. الله هو الفنان الساحر. لا شيء يشبه شيئاً. إنه نظام متعالق ومتشابك كالجذور تحت الأرض لا نراها أبداً.

أحبّت؛ كما في السابق؛ هذه اللغة الفياضة الراقية وهو يستطرد:

- لا توجد شجرة تشبه شجرة إطلاقاً، كما لا توجد امرأة تشبه امرأة إطلاقاً. كل شيء له فرادته الشخصية في الطبيعة.

اقتربت منه أكثر، لكنه ظل مستطرداً، وهو يشير إلى بضع نخلات قريبات:

- لا ضرورة لوجود نخلة في هذا الفضاء الجمالي. ليس في النخلة أية لمحة رومانسية.

- لكنها شجرة.

- إنها غريبة في هذا المكان. والأفضل أن يكون مكانها الشط والنهر والبستان وليس هنا.

استكمل كأنه يقرُّ حقيقة مهمة:

- جذعها لا يصلح للكتابة ولا التدوين.. ليس لها جذع إنما حراشف.

- لا تتجمّل الحدائق إلا بوجود النخيل.

- إنها حراشف خشنة تؤرّخ سيرة المياه العذبة في الأنهار والشطوط.. إنها ذاكرة بلاد على أية حال.

ترى الحراشف الخشنة المُليّفة طالعة كالأكف المحصورة في الجذوع، وتعرف أنها لا تصلح للتدوين والكتابة والحفر والخط والذكريات.. أفهمك ولا أفهمك. المعاني كثيرة والجمال وفير في كل مكان، وأنت رمز لا أستطيع مجاراته؛ فأنا أسير على شريحة شمس وأخشى العتمة. أخشى التأويل كثيراً. لكنني أتبعك في أروقة الكلية. أشم خطواتك. أشم الطين على أصابعك. فيك الكثير من العتمة واللاوضوح وأخشى هذا، لكن فيك الكثير من الشمس والضوء واللون؛ فيك نخلٌ كثير وشجرٌ كثير وأزهار

كثيرة؛ غير أنني أجدك عندما أفتح بصيرتي كشمس صغيرة، وحولك رقائق ضوء وظلال عميقة وليست عميقة، وفراشات سعيدة ترفرف على وجهك. أراك واضحاً وأهرع إليك. حتى حينما تختلط عليّ العتمة أهرع إليك لأجدني بك وأجدك بي. لا مستقبل نذهب إليه. هو يأتي كزمن سائل يتبخر بين خطواتنا وأقدامنا، ونبقى ننحته على الجدران والأبواب ودفاتر المذكرات وجذوع الأشجار. عدا النخلة فهي ذاكرة لوحدها.

أنتَ علمتني هذا.

(3)

عبرا قنطرة خشبية محدّبة كقوس مشدود؛ لم يشاهداها من قبل؛ إلى ضفة شجرية أخرى ولم ينشغلا بمرور النهر الصغير تحتها وهو يحمل شبكة واسعة من القطرات المدرارة، بل سارعا للاحتماء بأول مصطبة، لكنها كانت مائلة كثيراً وفاقدة لإحدى ركائزها الحديدية، فاضطرا إلى أن ينسحبا إلى مصطبة قريبة أخرى محاطة بجدار خشبي مقشّر كان مصبوغاً باللون الأبيض، كما توحي بذلك القشور الخشبية اللاصقة المبللة قليلاً، وكانت أصوات الأغاني الشعبية تأتي من بين الأشجار واضحة، فتزيد من تجاعيد السيدة زمن.

- قلة ذوق.. ثقافة اجتماعية منهارة.. بلد يحطّم مستقبل أبنائه.. شباب خرا..

تعود وتدمدم بانزعاج، لكن العجوز يحيلها إلى ملاحظاته المعتادة، من دون أن يهتم لدمدمتها:

- زمن.. لو كان صف الأشجار أبعد قليلاً من هذه المسافة.. الفراغ ضروري ليتسع الفضاء.

ترجع عن عصبيتها قليلاً وتتيح المجال لنفسها أن تندمج مع العجوز:

- أعتقد أنها تُركت سنواتٍ طويلة بلا عناية كافية.

همهم بيأس:

- صح.. كانت مأوى للجنود الذاهبين إلى الحرب.. الجنود ينامون في النهار هنا، ويسارعون مع الليل إلى محطة القطار القريبة.

لم يعد العجوز يعصر ذهنه كثيراً، وهو يرى مرور السنوات في ذاكرته سريعةً ومحترقة كالقش اليابس، لكنه لن ينسى الكثير من الومضات التي لا تبارحه، لاسيما سنوات الحروب الطويلة التي تفاداها طويلاً وتجنب شظاياها في مراحل كثيرة من حياته، وظل يحث طلبته؛ فيما بعد؛ على توثيقها بجماليات المنحوتات والرسوم واللوحات لتعبّر عن بشاعتها:

"كل الحروب قذرة.. لكن في الفن جماليات لا تُحصى. لابد من جماليات عظيمة فيه".

يوماً ما كان زملاؤه الطلبة يحيطون به وهو يعرض منحوتته الوحيدة "زمن"[٢] في ظروف جديدة لم تكن فيها حرب، بل ثورة ورفاق

٢- امرأة من فخار نصفها الأعلى خارج من تنور مستعر، والآخر مختفٍ داخل حلقة معدنية دائرية توحي بأنها رأس تنور.

شعرها نصف محترق.

وجهها غير محدد الملامح. يُقرأ على أنه غاضب. أو منزعج. أو خائف.

النار خارجة مع النصف الأعلى للمرأة.

يبدو أنها قد أغلقت فوهة التنور بجسدها، وبقيت ألسنة نيران تحاول أن تخرج من محبس التنور.

وجه المرأة غير ثابت. في عينيها غضب وتحدٍ وديمومة وبقاء.

وشعارات، وهو في امتحانه الأخير أمام لجنة التقييم النظرية الأيديولوجية.. أنت موهوب يا فتى.. لكن لا تبدد موهبتك بالأوهام.. المنحوتة جميلة في ظاهرها لكننا ننظر إليها وكأنها فأل سيء. اشتغالاتك الطينية تشير إلى موهبتك كثيراً. من أين هضمت فكرة الحرب ولا توجد حرب في البلاد، ولا تزال الثورة فتية وأنت ابن الثورة!

لم أجب بشيء، لكن المنحوتة كانت لساني.. وقتها لم يكن لي أب أحتمي به، بل منحوتة صغيرة نطقت فصارت "زمن" الخالدة في روحي وكياني. وظل لسان المنحوتة يتدفق على لساني، وكنت أنظر إلى اللجنة الأيديولوجية بحياد:

"الفن مادة لازمنية، ويمكنه أن يكتشف جماليات كثيرة في موضوعة الحرب، وليست الجماليات مشروع فتوى للحرب، لكنها مشروع فني قائم على مدار الحياة التي يمكن أن ينمو فيها الفن".

"لم أعرف شيئاً عن الحرب. لم أرَ الحرب حتى اليوم. لكن والدي شهيد في فلسطين فأورثني النبوءة".

"الشهداء أكبر من الأنبياء.. هكذا أفهم".

"ليست الحرب موضوعة غريبة في الفنون والآداب العالمية، لكننا غير قادرين على استيعابها جمالياً، لأننا منحوتات أيديولوجية".

"زمن منحوتة ونبوءة بطريقتها".

"الفن يلازم الحياة بخيرها وشرها، ولا يتخلى عن هذا وذاك".

حول المرأة فضاء واسع لم يتحدد كثيراً فبقي مفتوحاً على نهر أخضر وموحيات شجرية ليست مخفية كثيراً. ثمة صرخة مكبوتة يمكن استدراكها بين شفتي المرأة.

سنبلة وحيدة على ظهرها انسجمت مع اللون الذهبي الساطع.

"الفن مسؤولية وشهادة، وأي تزوير فيه هو تزوير لتاريخ البلاد".

"الحياة ليست هي الحرب. الحياة هي الجمال واللون والنظام".

"أحياناً يموت الجنود من أجل قضية ليست مهمة".

"الفراغات هي الحياة التي يجب أن نملأها بالجمال".

"لا فن بلا فراغ ولا فيزياء بلا فراغ ولا حب بلا فراغ".

"عندما ينتشر الجمال، يحل على الأرض السلام".

"هذه المنحوتة هي زميلتي الطالبة زمن التي تقمّصت روح المرأة وهي تجابه تجاذبات الحرب حتى تجاوزتها إلى مدى أبعد من الحرب.. كأنها أبي قبل أن يستشهد هناك".

"المنحوتة زمن.. هي الحرب المستمرة فينا والتي لا يمكن إطفاؤها حتى بعد تعاقب أجيال.. والطالبة زمن هي الحب الذي تمكّن مني، ولا بأس أن أعلنه أمامكم بشجاعة ووضوح".

أنت واهم صغير.. أنت تستظل بظل الثورة، فانزع من مخك صبيانيات صعاليك الفن.. هكذا أجابتني اللجنة قبل نصف قرن مع بداية ثورة لا أعرفها ولا أعرف وجوه أصحابها، فوجدت والدي الشهيد يسير في حلم على خيطٍ رفيع ووجهه مليء بالحزن والتجاعيد، وقتها تخلصت من تجاعيد الطين وصرخة الطين ودبق الطين، وفتحت عينيّ على زمن الصغيرة التي جسّدت حلمي ونبوءتي بطريقتها العجيبة.

أتذكرين ذلك يا زمن؟ وكيف حاصرونا؟ وكيف تخلصنا منهم؟

أذكرُ كل شيء. أذكر عنادك وصبيانيتك أيضاً. يومها وأنت تنجح، فتحت عينيّ على هذه الصرخات التي أطلقتَها بطريقة وحشية، وكانت

اللجنة الأيديولوجية تستفزك، لكنك كنت بارعاً وصادقاً وواثقاً من منحوتة الزمن.

تتقلص زمن كثيراً حتى لتبدو أنها غيرها. تتحول من شابة عشرينية إلى امرأة، كأنما ستأتي في زمن آخر، وكأنما يثقب الزمن بهذا الموديل وهو يرفع عينيه من المنحوتة إلى زمنها الحي الماثل أمامه كأيقونة مشعّة.

لا تعرف ماذا كان يجول في داخلها يومذاك، سوى أنها تخشى العتمة كثيراً، لكنها بقيت خائفة وقتاً غير قصير، حتى تخلصت من أعباء الشخصية الثانية التي لازمتها وقتاً في امتحان مشترك ومتداخل بينهما، وكانت منسجمة مع هذا العقل الناقد الذي لفتها بطريقة طفولية مع لجنة الاختبار، لتواصل الحياة على إيقاعه الصارم المفتوح على الجمال، واندغمت مع الطين والفخار والطالب الذي تفوق وصار أستاذاً لامعاً، وظلت أصابعه تحيي الطين وتنفخ في روحه، لاسيما "زمن" التي ابتكرت لغتها بطريقة مذهلة في ظروف غامضة. لكنه اكتفى بها في امتحان الأرجحية، وسجلها لنفسه تاريخاً شخصياً مع زمن موديله الوحيد إلى اليوم، ولجأ إلى الكتابة والحروف والسطور والتدوين اللغوي والملاحظات الجمالية بأكثر من عين مراقِبَة، فترك الطين والفخار ونيران الأفران المتوهجة (صار الطين وسخاً) وظل يرى نيران البلاد وانعكاساتها في المعارض الفردية والجماعية، كاتباً جمالياً بعيد النظر، مستقرئاً فن البلاد أثناء وبعد الحرب. ومعه زمن التي كبرت وصارت أنثى، تواكِب هذه الحياة المدفونة بين السطور لبلادٍ كانت تخنق أنفاسهما، وكانا يدفعان شرورها بكل حيلة وسبب. حتى استمرّا متخطّيين عقبات العمر المعقدة.

(4)

- أنتِ زمن.

لم أفهم كثيراً تأويل اسمي ولا المنحوتة التي هي أنا ولستُ أنا. كنت صغيرة وناعمة مثل عشبة. هكذا كنت قبل المنحوتة الجبارة، وكنت لا أعرف كيف أبدو أمامك، سوى أن أمتثل لشغف الطين بين أصابعك وروحك. روحك من طين البلاد، لهذا أحببت أصابعك وهي تعيد تكويني، فصرت وردة، ثم عطراً، ثم غصناً، ثم شجرة. ثم حديقة، ثم غابة. ثم أنثى.

خلقتني من هذا كله خطوةً خطوة، وكنتُ صبية شاطرة، ثم أنثى بين أصابعك تصرخ وتموت حباً بك لأنك البلاد الوحيدة التي أحبها. الطين الأحمر الحر الذي تكونت منه وما زلت أنمو بالرغم من تجاعيد قلبي الكثيرة وتجاعيد الحياة التي طفرت إلى المستقبل. نحن ذهبنا إلى المستقبل: أنت تقول لي هذا: المستقبل لا يأتي. نحن نذهب إليه، لأنه زمن سائل يتبخر سريعاً وسائب كأنه اللازمن، وكلما نأتيه يصبح ماضياً..

- انظري يا زمن، نحن نتغير بفعل الحاضر لأنه يصبح ماضياً. لا يوجد مستقبل. المستقبل يمضي مثل الشبح. يأتي ويمضي. لهذا لا تذهبي إليه. اتركيه في هذه اللعبة السائلة السائبة واملئي حياتك بالسعادة.

"صار الطين وسخاً".

هكذا قلتَ لي أكثر من مرة.

(5)

تعيد شيئاً من الكثير الذي رافقته ورافقها، وتبتسم حينما تتذكر عينيها الجامدتين اللتين - سراً- تجمعان روح الفنان وهو يعمل بصبرٍ ومتعة أمام منحوتة وحيدة صغيرة، بدأت من كتل طينية لزجة حتى تكونت هي بروحها وشكلها، وكانت ترى في رأسه جمالاً لا تفصح عيناه عنه كثيراً.

"افتحي عينيك أكثر".

"لا تبتسمي.. ابتسمي".

"أنت حلوة.. لكن لا أريدك حلوة في المنحوتة. كوني امرأة غاضبة".

"زمن.. كوني ريلاكس.. افتحي جسدك.. لا تتشنجي.. لا تنظري إلي".

"افضحي الحرب بتعبيرات وجهك.. انظري إلى الأمام والخلف في آنٍ واحد".

"الآن قلّصي عضلات الوجه، وكوني أكثر حزناً".

"كوني أماً فقدت ولدها الوحيد.. كوني امرأة تتابع أخبار جبهات القتال، وتنتظر أحداً لا يأتي".

"اكبري على عمرك".

"كوني أبي.. أبي الذي لا يأتي إلى الأبد".

"تصوري الحرب أمام بيتك.. جنود وغزاة ورصاص وقنابل وطائرات وموت ودم".

"سيقتلونك أنت بلا رحمة".

"سيغتصبونك بوحشية".

تشعر بالاختناق. يحيطها دخان غريب خرج من روحها، وأربكتها أصوات النفير ودمدمة المدافع وأصوات الغزاة المسعورة، فتلبّد وجهها بالغضب، واكتسحته موجة من التراب الحار والبارود الناعم.

"أنا أختنق.. حررني".

"لا.."

"لا أعرف كيف تأتي الحرب".

"زمن.. أنتِ أبي".

"سأموت.. أنا أختنق".

"أهوال الحرب كثيرة.. ابقي هكذا".

"أختنق.. لا أعرف معنى الحرب".

"الحرب هي أبي الذي مات".

"أنا زمن ولست أباك.. أنا أختنق".

"أنت زمني.. ليخرج من عينيك وميض ونار ودخان".

كان يسابق تقلبات وجهها وامتعاضاته وتقلصاته واختناقاته ودموعه ويضع سكيتشات أولية؛ يخطها بعصبية، متابعاً رعب الوجه الجميل، المتحول، المتلبد، الخائف، المذعور، حتى سحرته زمن العشرينية التي اختنقت أمامه وقتاً طويلاً، قبل أن يتحول هذا الاختناق العظيم من خطوط منفعلة ورسمات عصبية إلى كتلة طينية مفخورة، أبقت على تلك الانفعالات بنجاح ساحق. مثلما بقيت زمن إلى جانبه خمسين سنة من الحب.

أنتِ أبي..

لا أنسى هذا.. وكنتُ أبكي في داخلي، وأنا أرى الطين بين أصابعكَ يتحول إلى بارود ونار وغضب.

(6)

تقول زمن شيئاً لا أفهمه. كانت تختنق وكنت أمضي إلى فكرتي بأن أجسّد خيال الرعب في الحرب عبر وجهها الصبي الذي امتلكني بسحره المزدوج. إنه أهوال من الرعب والعزلة والجمال والطفولة والبراءة واليقين الذي أبحث عنه بعقلية الطالب المُجِدّ، يومها كنت أمشي على شريحة شمس متفادياً عتماتٍ كثيرة وضعوها أمامي. أحب الوضوح ويربكني اللامعنى. أخاف من التأويل كثيراً، لكنني كنت أدرك أن لا وضوح ولا معنى بلا تأويل. ليست الحياة كافية لأن نكوّن منها المعنى منها، والفن هو الرديف المناسب للحياة، لأنه ليس مُلزماً بأن يكون واضحاً. الفن يشتغل على آفاق غير منظورة في أغلب الأحيان. يشتغل في الرأس والبصيرة والحدس والنبوءة، لذلك فمعظم الفنانين أنبياء برسالات خالدة.

- انظري يا زمن، حينما تركتُ النحت واعياً، لجأت إلى الكتابة الجمالية لأكتب رسائل الأنبياء، فالفنانون ينحتون ويرسمون ولا يقولون غير هذا. صامتون كأنهم أغبياء. معقودة ألسنتهم. أصابعهم تترك الأثر تلو الأثر. إنهم بحاجة إلى إله يكتب نبوءاتهم ومعجزاتهم ويدوّنها كآثار باقية إلى الأجيال التي تأتي بعد الحروب لترى الأثر والرسالة معاً.

فهمتيني؟

أشجارٌ زرقاء في ذاكرتي

(1)

تعيده السيدة إلى اللحظة المشتركة بينهما:

- لا تسرح عني، فقد لا نعود ثانية إلى هنا.. مَن يدري!

ينتبه العجوز، وهو ينسحب من المنحوتة اليتيمة ودمعة ثقيلة عالقة بين رموشه وصورة زمن العشرينية التي كانت تضخ فيه الكثير من الجمال والحب، وما تزال كما هي، ذلك الموديل الشبابي القديم الذي حوّله الاختناق إلى أنثى تكظم غيظها وصرختها أمام الرب والحرب وطول المعاناة لتنجح معه في منحوتة الحياة الصارمة.

- ستبقين موديلي إلى الأبد.

- أنا..؟

- أنت زمني الشخصي يا زمن.

تغادره زمن كتجربة أولى متميزة نجح الاثنان فيها، ولم يحاول بعدها حينما قبض على زمن الصغيرة التي كبرت في المنحوتة وفاقت عمرها الصغير، يوم كانت الحياة أقل ثقلاً وأكثر حيوية وأملاً وصبابةً، ويتلاشى من رأسه الجنود ويخفت عواء القطارات القريبة فيه، وتنمحي صورة المنحوتة العتيقة، فيعيد لحظته سريعاً واضعاً يده على كتف السيدة التي أخذت تشعر بالبرد، لكنها بقيت في لحظة السعادة المشتركة منصتة لدبيب التاريخ والطين والفخار والأكاديمية وأصابع الطالب الماهرة التي تُنطق

الحجر؛ تلك الأصابع التي تحولت من الطين إلى الحروف والكلمات والسطور، وقادتها خمسين سنة في مغامرات الحياة التي تقف الآن عند منطلقها البريء، لتعيد تلك الدورة الذهبية بروح ليست يائسة، وإن مرت سبعون سنة بتمامها وكمالها.

- لنا غابات في هذه الحديقة وذكريات.. خمسون سنة مرت.. يا إلهي.

تمتم أستاذ الجماليات بهدوء، كما لو أنه يأسف على زمنٍ مرّ سريعاً كالماء وبقيت الحروف متوزعة بين الجرائد والكتب المنهجية والمجلات المحكّمة. تشير إلى أدواره وأدواته النقدية وهو يحفر في طين الفن وألوان الأقمشة المتماسكة على شطحاتها التجريبية والواقعية.

(2)

الممرات المبلطة بالكاشي التركي المضلّع بلا أرصفة جعل حافاتها سائبة وقلقة. وكان العجوز يرى زحف الأعشاب من بين تلك الحافات المفتوحة، فيهوّم بيديه كأنه يطرد ذوائبها من أمامه ممتعضاً لا يريد أن يقول شيئاً يبدد حالة السيدة التي لا تزال متمسكة بباقة الورد.

قالت السيدة زمن، وهي تستوحش المكان إلى حد ما:

- السيطرات وحواجز التفتيش تعيق الناس من المجيء إلى هنا.

عبرا قنطرة صغيرة تربط ضفتي نهر صغير، ويدها حريصة أن تظل بقبضته الضعيفة. فيما مر قطار الحديقة الطويل بلا أطفال من دون أن يثير ضجيجاً كثيراً، وتوقف عند رأس قنطرة خشبية بأمل أن يستقبل أطفال المدارس في صباح المطر. وكان العجوز يُغرق بصره في قاع النهر المخضر

تحت القنطرة، وهو يتحدث بصوت لا تسمعه السيدة؛ ثم متطلعاً إلى أكشاك وكافتيريات متراصفة بألوان متداخلة ومزينة ببوسترات تجارية لممثلين وممثلات لم يستسغها وشرائط لا ضرورة لها كما يهمس بقلبه. غير أنه وجد نفسه يدور في أفقٍ أخضر بين القناطر والأنهار الصغيرة والأكشاك الناشزة بألوانها الصارخة، ممسكاً بذراع سيدته الهادئة كطفلة، وكانت إحدى المظلات كزهرة التوليب المفتوحة رابضة ومحاطة بأخشاب تترك فراغات قليلة بين خشبة وأخرى، كما لو أنها قفص مفتوح. كانت محطة صغيرة للراحة، فأخرج من جيب معطفه قطعة مدعوكة من الكلينكس، وحاول أن يزيل آثار الرطوبة عن مساحة قليلة لتجلس عليها سيدته البيضاء، واكتفى بنفخ المكان الذي جلس عليه، وأحاط سيدته بذراعه، وهو ينظر إلى السماء الغائمة.

- أشجارنا القديمة مباركة.. لكن كيف سنعثر عليها..؟

(3)

كان العجوز يجيل بنظره على الأشجار الكثيرة التي شكلت أول غابة صغيرة في أقصى الحديقة العملاقة منذ زمنها قديم، وكان يشم روائح مختلفة تهبّ على ذاكرته المتوقدة بشكل كبير. ومع أنه يشعر بلسعة برد تجتاح جسده النحيل، إلا أنه كان يستشعر الدفء من سيدته الملاصقة لكتفه، محاوِلة أن تكون في تمام اللحظة الماضية التي تعيدها بشفافيةٍ لونها واحد كما كانت، مصممة على ألا يظهر عليها طيف الحزن في هذه المناسبة العظيمة، وربما كانت في سرها تدق ساعة اللقاء القديمة في منتصف العشق الذي لازمها طويلاً وزرع فيها روح العاشقة الأبدية.

(4)

طالعته مجسمات جبسية بدائية أخرى لطواويس وبطات لم تستطع الأعشاب الصناعية أن تغطيها، وظهر الجبس في بعض المواضع المكشوفة منها، فازداد انقباضاً، وبدا الانزعاج على وجهه واضحاً.

قال وكأنه لا يحتمل أن يبقى داخله محبوساً:

- أرأيتِ.. أي استسهال للفن هذا!

خففت عنه قليلاً وصوتها يرتعش:

- إنه جماليات بسيطة تتوافق مع أذواق الناس.

- ومَن يحدد أذواق الناس؟ مَن قال إن الناس يريدون هذه الأشكال الناشزة؟

- أفضل من أن تبقى مساحة فارغة هنا وهناك.

- لو يبقى الفراغ سيكون أجمل.. إنهم يستهينون بالفراغات.

وكأنه يلقي جملة عرضية لطلبته:

- الفراغات كتل رهيبة في الحياة لا نعرف قيمتها. الفراغ هو العمق الفيزيائي للموجودات، وكل كتلة لابد من فراغ فيها أو حولها.. إنها وجهة نظر في الفن وزاوية رؤية أيضاً. الفراغ يصنع جماليات لا حدود لها، ويخفف من توتراتنا العصبية الكثيرة.

تعترض قليلاً:

- هذه نظريات صعبة لمكان عام وناس لا يفهمون الكثير منه.

يرد بإصرار بروح الأستاذ الذي يوجّه طلبته:

- عليهم أن يفهموا أن الشكل ضروري في الحياة، وأن الفراغ جزء من الشكل.

تعترض مرة أخرى:

- الناس الذين يمرون من هنا ليس بالضرورة أن تكون لهم علاقة بمثل هذا الوصف.

يخفض من صوته قليلاً، لكنه لا يريد أن يستسلم:

- الموضوع تدريب.. ذائقة.. عقود طويلة وهذه البلاد تنتج الفن وعبقرية الجمال والحضارة.

تواصل السيدة آراءها بهدوء:

- تغيرت الأحوال يا رجل. ثورة الإلكترونيات هي الثالثة في حياة البشرية، ولابد أن تُستحدَث فيها مجالات للتوصيل غير ما كانت عليه في أيامنا تلك.

يتساءل بالصوت المنخفض ذاته:

- وما شأن الإلكترونيات بحديقة أثرية قوامها الماء والأشجار والفراغ والمطر والبط والفضاء؟ أليس الأفضل أن تُوَظف مثل هذه المنجزات العظيمة لتطوير هذا الأثر وتثوير روح الجمال فيه؟

يقف وهو يتطلع بطريقة غير مركزة على أجزاء من الحديقة:

- انظري.. هل توجد نافورة واحدة في كل الحديقة؟ وهذه لا تحتاج إلى إلكترونيات يا عزيزتي!

ابتسمت وهي تهدّئ من فورته السريعة:

- لا عليك.. الحكومة منشغلة بأشياء أهم من هذا الآن.

عاد وجلس في مكانه، وهو ينظر إلى سيدته بتوتر:

- لا يمكن لمجموعة حرامية أن يبحثوا عن لمحة واحدة من الجمال في البلاد. هؤلاء نتاج وساخة ومزابل دول.

التفتت السيدة إلى أكثر من مكان بقلق. ثم ربتت على كتفه وضمت جزءاً من جسدها إليه لتخفيف انفعالاته المتتالية:

- أين أشجارنا القديمة؟

كان العجوز ينظر إلى شجرة قديمة تستدق أمامه شامخةً:

- كل شيء قديم لا ننتبه إلى جماله إلا بعد فوات الأوان.

- لم تقل لي أين هي الأشجار القديمة؟ يبدو أن الخريطة اختلطت علي.

رد العجوز وهو يشم وردته الوحيدة بانفعال:

- الحديقة لم تتغير وكأنها حديقة الأمس بغاباتها، لكن الأسفلت خربها وألوان الأكشاك أضفت عليها منظراً كريهاً. وهذه المجسّمات السخيفة أعطتها صورة بائسة.

ثم باشمئزاز وهو يعيد باينباغه الطافر إلى صدره:

- الألوان وسخة وغير نظامية.. تشعرني بالقرف.. هناك أشياء غلط في الرسوم والمجسمات والبوسترات وترتيب الأشجار.. التزيينات مرتجلة وبدائية.

- إنهم موظفون، لا يعرفون قيمة اللون.

أشار بيده:

- بربك هل هذه ألوان؟ لماذا كل هذا الفوضى! هل كانت الحديقة بمثل هذا السوء من قبل؟ أنا غير سعيد.. الحديقة وسخة. غاباتها غير منظمة.. ألوان الأكشاك ناشزة.. فوضى.. مجسمات مضحكة وتماثيل كاريكاتيرية.. هذه إهانة لتاريخ البلاد الفني.

تمتص شيئاً من عصبيته قليلاً:

- الظروف تغيرت والأنفاس كثرت.. ماذا تريد من مكان داس عليه الملايين منذ خمسين سنة؟

سكت على مضض.

قالت السيدة تختصر انفعالات العجوز:

- كل زمن له نظافته وله وساخته.

- لا أريد من الزمن غير أن يبقى كما هو في ذاكرتي.

- كل زمن له ذاكرته سيدي الناقد.. زمن يمسخ زمناً وتبقى الشواهد لفترات غير مؤكدة، ثم تضمحل. هذه حتمية التاريخ الاجتماعي.

- ولماذا يحدث كل هذا؟

- لأن الزمن كفيل بأن يغير الطبائع والظروف والحياة.

- وهل النظافة لها زمن؟

- لا زمن لها. لكنك تقصد الجمال والتنسيق والروح الحيّة في المكان.

- صحيح.

يسكت العجوز، كأنما أخِذَ فجأة أمام سيدته التي تعرف حساسيته المفرطة إزاء اللخبطات في الحياة في الفوضى واللاتنظيم والعشوائيات والاستهانة بالألوان، لكنها تحاول ألا تغيظه، فتقترب منه أكثر لترى كل الأشياء في عينيه ليست كما تركها منذ خمسين سنة، كأنها أشكال من غبار وطين ومياه ضحلة.. هذا هو منذ أن عرفته طالباً في أكاديمية الفنون الجميلة حتى صار أستاذاً فيها ثم متقاعداً منها.

انظري يا زمن زمن.. يستطيع الإنسان أن يكون خالقاً مُعجِزاً ينافس السماء بخلقه وإبداعه على مستوىً معين مع أنه ليس له حدود. الإنسان إله بهيئة رجل أو أنثى. له طاقة غير منظورة. له شفافية وغموض يستطيع من خلالهما أن يؤسس عالم الجمال ليطرد وحشة الحياة. الحياة هي الزمن الذي يأكل الإنسان، والإنسان هو آلة حسية عجيبة من مشاعر وحدوس ونبوءات يتحدى فيها الزمن، فيقيم صلته على هذا المنوال طول عمره، فقد يؤخر فعل الزمن الجارح نوعها بالحب والجمال.

كانت تعيد شذراته القديمة لنفسها وهي تلصق جسدها بجسده. شاعرة بارتياح نسبي كما لو أخرجت من قلبها بقايا حب معتق، وبقيت تنظر إلى بعض الآليات المتروكة القريبة والمتوزعة بين الجذوع الغليظة. وفي رأسها تطوف ألوان كثيرة زرعها العجوز في رأسها عمراً كاملاً؛ ولعلها لا تنسى مرة حينما سألته لماذا لا تكون الأشجار الطويلة زرقاء؟ وكانت تضحك في سرها وروحها متفتحة لذلك الخيال الملون الذي يستطيبه العجوز حينما يتحدث لها عن النظام وفلسفة التناسق وعشوائيات الأمكنة أينما يكون معها.. لكنها بقيت تضحك في سرها لذلك الخيال الملون،

وبقيت الفكرة الزرقاء عالقة برأسها سنوات طويلة وربما لا تزال حتى اليوم.. فعلاً لماذا لا تكون الأشجار زرقاء!

- زرعتَ في شعوراً باللون وبقيت أتطلع إلى الأشجار فعلاً فكانت خضراء وليست زرقاء، لكنني بقيت أتخيلها زرقاء وأضفى خيالي عليها ألواناً أخرى: بيضاء وحمراء وصفراء مثل الأزهار.

- لابد أن تفكري بخيالٍ آخر بعيداً عن سلطة الواقع، فالأشجار زرقاء وحمراء وصفراء ووردية إذا تخليتِ عن واقعيتك الملازِمة لك.

- لكنني في واقع كما هو.. فالأشجار خضراء ولا يمكن أن تكون بغير هذه الصفة.

- انظري إليها بعينك الأخرى. عين الخيال المفتوحة إلى أوسع مدىً. سترين الحياة ليست كما هي بل ما يجب أن تكون.

- لكن الطبيعة ثابتة.

- نحن مَن نغير هذا الثبات إلى خيال فنرسم وننحت ونكتب ونتأمل، تلك هي جماليات الخيال والوجود.

- مع هذا فسيرة الواقع أقوى.

- الخيال الفائق والفعّال هو الذي يكوّن جمال الحياة بهذا الكم من الحرية والمذاق.

والخيال أنتَ يا فائق الخيال والجمال. لم يكن عقلي قبل المنحوتة كافياً لأفهم أن الأنثى تحتاج إلى الرجل. كنت طالبة وصغيرة ومدللة لا تغريني هذه الفكرة كثيراً حتى صنعتني بطريقتك، وأفهمتني أن الوردة لا تصلح

للشم إن لم يكن فيها عطر، والغصن إن لم تزينه الأوراق تهجره العصافير ولا تقيم الأعشاش عليه، تماماً مثل أروقة الكلية إن لم تكن فيها أرواحنا فليس فيها من معنى، وأن الأساتذة العجائز هم أرض الكلية وسمادها الخصيب.

- وماذا تقول في جماعة الثورة؟

- الثورة هي الحصول على السلطة وليس الحصول على الحياة، وهؤلاء يسيرون على مغناطيس اسمه الثورة.

أتحرك معكَ. أنت البوصلة الوحيدة التي تشير إلي وتكتشفني وتفضحني وتعرّيني. أبحث عنك ساعاتٍ طويلة. جسدي يبحث عنك. لا.. روحي تبحث عنك. شيء ما بي يختلج ويتفتح. أنت تكتشفني وأنا أكتشفني. أنا أنثى وأنت رجل صغير وكبير يتسامى ويلوذ بين طين دجلة والفرات. أنا عجينتك ومونديلك ومنحوتتك وحبيبتك وزوجتك. لم أذهب إلى الزمن إنما هو الذي جاء.. الزمن تجاعيد هههه. الزمن أنا وأنت وهذه الحديقة العملاقة وغاباتها الصغيرة التي ما تزال روائحنا فيها مثمرة كأنها زمن آخر لا يعرفها إلا مَن كان يؤخر الزمن ويحتال عليه.. بقيت معك كل عمري. خمسين سنة وأنا أسعى بين حروفك بعدما تركتَ الطين لتكتب رسالات الأنبياء في البلاد وتنشرها إلى الجماهير لتقول لهم: هؤلاء هم مؤسسو حضارات الجمال في البلاد. هؤلاء أنبياء الأزمان كلها. هذه بلاد الطين الأحمر المَرِن النقي. ستنجب الكثير من الأنبياء لأن الأنبياء بشر وليسوا آلهة، وكنتُ أخطو مع رسالاتك، لا لأصبح نبيّة ولا أنتظرك لتصبح نبياً، فأنت صانع الجمال ومؤرخ زمن الأنبياء الحقيقيين.

مقصّات الذكريات

(1)

ثمة آليات صغيرة وقليلة جاثمة هنا وهناك بين فسحات الجذوع، متروكة كما يبدو منذ فترة ليست بعيدة من سيارات صغيرة ورافعات عالية بكلاليب مطبقة ومقصّات حديدية لامعة مشرعة، لكنها جامدة حتى اللحظة.

ثمة جذوع قليلة مطروحة قريبة منها، تركت بعض الفراغات الواضحة، وبقيتْ في أماكنها دكّات مدورة ملساء ملأها شباب عابرون بذكريات سريعة حديثة أو شخابيط لا معنى لها في كثير من الأحيان؛ وكان العجوز الذي ظل يعتني بوردته الوحيدة، يقترب كثيراً من السيدة، وهو يتجول ببصره الضعيف بين تلك الآليات المهجورة والجذوع الساقطة، وقد ضمها أكثر، وكانت عيناها تدمعان قليلاً مشفوعتين بفرح داخلي لا تستطيع كتمه في الذكرى الخمسين للقائها بالعجوز والزواج منه، بعد أن كانت منحوتة ذائعة الصيت في أكاديمية الفنون الجميلة تتناغم مع لحظتها التي استوطنت مكاناً في روحها؛ وهي تختصر الحرب بوجهها المليح وتترجم مزاج الطالب المبتكِر، مستعيدة شيئاً من أشجار الأمس والحديقة المفتوحة التي كانت ماطرة ذات يوم بغاباتها الصغيرة المكتظة المتوزعة على أطرافها؛ كتمام اللحظة الماثلة فيها الآن والخافقة على الأشجار بنقر خفيف تسمعه كما سمعته أكثر من مرة في ماضٍ بعيد، فازدادت التصاقاً بالعجوز الذي كانت الوردة الحمراء تحت معطفه ويتمسك بسيدته حد الالتصاق الحميم بها، فبدوا مثل تمثالين أحدهما اتكأ على الآخر.

تمتمت ورأسها ساقط على كتفه المعطفي وبخار أبيض دافئ يخرج من فمها:

- خمسون سنة..!

(2)

كان حريصاً على ألا تنفرط أوراق وردته الوحيدة، فحجز جسد المرأة بساعده من تحت المعطف. مثلما كان حريصاً على تثبيت سماعة أذنه باليد الأخرى وهو يرتعش قليلاً.

- بودي أن أرى أشجارنا وغاباتنا القديمة.

بالكاد سمعها العجوز فقال لها:

- حتى يخفّ المطر.. الحديقة واسعة وغاباتها الصغيرة متباعدة، ونحتاج إلى جو بلا مطر.

- تقلقني هذه الآليات.

- لعلهم يبنون شيئاً جديداً.

أشارت السيدة إلى أكثر من آليّة صغيرة:

- هذه تعمل كمقص.. وتلك حفّارة.

اتكأت على كتفه وباقة الورد في يدها مبللة قليلاً، لكنها بقيت تشدها بأصابعها متمسكة بها وعيناها الكليلتان تنظران إليها، ثم تستغرقان بالنظر إلى انسياب المطر الذي أخذ ينهمر بالتدريج ويفتح سيولاً مائية صغيرة تتجمع عند حافة حذائها، وتنحدر إلى الشارع عبر خسوفات صغيرة تعمل كممرات طائشة للمياه المتسربة.

نحن الغد
لو بقينا أحياء

بين لحظة وأخرى تمسك قلبها كما لو أنها تتأكد من نبضه، مأخوذة بهذا الصباح التاريخي الحافل بالفرح وهي تزور المكان بعد غياب سنوات كثيرة كحمامة تتفقد عشها القديم، فاطمأنت إلى أن صدرها يتنفس ونبضها الضعيف يتجاوب مع هذه الفسحة المتجددة في حياتها، بعد ذلك الشوط الغابر الذي تستميت لأن تحييه أثناء محاورات يومية كثيرة مع العجوز سبقت المناسبة بشهر في أقل تقدير.

- نحتفل في لبنان كما احتفلنا قبل سنوات.

- لا.. زرت لبنان كثيراً.

- اسطنبول؟

- لا.

- نحتفل في أوروبا؟

- لا.. لا أتحمل الصقيع.

- نغير المكان؟

- لا أشعر بأن الخارج يستهويني بعد.. أشعر بالتعب.

- قلبك يتفتح في الهواء الطلق هناك.

- سابقاً صح.. الآن الظروف تغيرت ومزاجي تخربط كثيراً.

- لدينا بعض الوقت لنقرر.

- هذه الذكرى الخمسينية أريدها هنا في الوطن. لم يبقَ وقتٌ كثير للحياة يا عجوزي الجميل.

- أنتِ منحوتتي الوحيدة القديمة المتجددة التي ما تزال شابّة حتى اليوم.

نظرت قليلاً إلى المنحوتة القديمة في ذاكرتها وانفعالات عضلات وجهها واختناقها الفظيع:

- تواسيني وأواسيك. لكننا وصلنا إلى حافة الحياة.

- قد تطول هذه الحافة إلى سبعين سنة أخرى.

- ما حاجتنا إلى العمر بعد!

أعادها العجوز وهو يرتجف قليلاً إلى اللحظة المشتركة بينهما، بعدما وجدها سارحة كثيراً أو تحاكي نفسها أو تستعيد شيئاً ما في داخلها:

- الحب هو ألا نفترق مهما طال العمر.

وأكمل بحكمة:

- الأمس عبارة عن سبعين سنة.

تساءلتْ كمن لا تريد لحزن عابر أن يطفح على وجهها:

- والغد؟

- لا يوجد غد.. نحن الغد لو بقينا أحياء.

- منذ زمن بعيد لم أقف تحت المطر.

همست برومانسية، في محاولة لإبقاء جذوة الفرح الطفولي فيها، وهي تمد يدها تحت نثيث المطر العابر من بين الغصون، كأنها ستجمع منه حفنة صغيرة وتخبّئها في حقيبتها، ثم تمد باقة الورد تبللها قليلاً مبتسمة، وما زالت متكئة على كتف العجوز الذي تشعر باختلاجات جسده النحيل أو ذاكرته التي تتفتح بالتدريج وتستحضر المَشاهد المتكررة لمثل هذه الحالة في طقسها المطري؛ حينما كانت زمن القديمة تركن رأسها بشعرها الطويل على كتفه وتحلم قليلاً أو كثيراً، كما يحدث في أفلام الأسود والأبيض الرومانسية التي كانت تستثير حلمه الشبابي الأول وتمنحه الطمأنينة الكافية في الحياة التي ظل ينتظرها، كما يحدث الآن، لكن بلا حلقات فيلمية مهيأة لهذه الأغراض الشفافة التي كانت تضخ فيه الكثير من العفوية والجمال. غير أنه استدرك وقته الآن، كما استدرك الزمن الطويل العابر على ذاكرته وروحه التي بقيت لصيقة الـ زمن بذبحتها الصدرية التي تنتابها بين الحين والآخر.

- نغيّر المكان.

رفعت رأسها من على كتفه كأنما داهمها طيف سريع، ونهضت بصعوبة مثقلة بجسدها، ومدت يدها إلى يده وسحبته برفق، ثم طوّقت ظهره من خلف المعطف، وهمهمت بصوت منخفض كأنما لا تريد أن تسمعه:

- أشعر بأنه آخر يوم سعيد في حياتي.

لم يسمعها العجوز المنشغل بترتيب سماعة أذنه.

البط الوديع ببياضه الناصع

(1)

انهمر المطر غاسلاً الشوارع والأكشاك وكراسي الكافتيريات والأشجار التي بدت بلمعان أخضر فاقع، وأغصانها تتمايل كأنها تسبح في الفضاء بلا أجنحة، فدرجا على الممر منعَطفيْن تحت سقيفة تحمي ثلاثة أكشاك خشبية متصلة ببعضها؛ تفادياً للسيول التي أخذت تتجمع وتطفح ثم تتسرب من الشقوق الأرضية الصغيرة إلى الشارع أو الأرصفة الحجرية المخربة تقريباً، فيما بقي الرعد يقصف السماء، وتنبثق أغصان ضوئية كثيرة تبدد عتمة السماء الثقيلة بالغيوم، وتفتح فيها أضواءً متلاحقة، وامضة، سريعة.

- الله.. ما أجمل هذا.

ظل رأسها مرفوعاً وقلبها يخفق بمتعة أمام لوحة السماء المصطخبة، كلما كانت أغصان الضوء تتتالى بسرعتها الضوئية عابرة زمنها الصغير المطوّق بالأشجار والأمطار إلى زمن آخر؛ تستقطره بمهل لترى تلك الصبية الشابة الرافلة بالحب والجمال في منحوتة الأمس، وهي تسرق بعض الوقت لتراه وتكتب حرفه الأول على قلبٍ كبير بسعة الحديقة العملاقة أو أكبر منها بكثير، فبدا أنها سعيدة ومهيأة للجمال السبعيني الذي يستشري في روحها الآن، وإنْ ظل قلبها يخفق بلا انتظام وتنورتها البيضاء تلمّ قطرات نافرة من المطر. وكان العجوز يدرج بمهل شاعراً بسعادتها القصوى، فيبتسم لوحده

كطفل كمن ينجز عملاً مهماً الآن، وبين لحظة وأخرى يثبّت السماعة الصغيرة ويدسها في أذنه؛ لعلها تقول شيئاً يضيف إليه سعادة صغيرة أخرى ويُضفي عليه مزاجاً آخر يجمّل النهار الماطر. وكان بين الحين والآخر يتأكد من استرسال باينباغه على صدره، وبقيت وردته الحمراء مخفية تحت معطفه الثقيل.

- يا رب اجعل المطر خيراً علينا.

تمتمت وهي تقود نحّاتَها القديم إلى حواضن شجرية مكتظة بجذوع متماسكة تشكل صفوفاً متراصّة لا تفصلها إلا فجوات صغيرة يمر من خلالها العابرون والعشاق والأطفال في لعبة الاستغماية، وثمة مصاطب متفرقة لم تتبلل بعد، وبعض الآليات الساكنة تحت المطر والى جانبها بعض الجذوع المطروحة المصفوفة بعناية، منزوعة الرؤوس، فبانت مثل جثث عملاقة تقسم الممر كقناطر عشوائية تربك المكان.

(2)

بلا تحفظ جلسا على مصطبة صغيرة، لم ينل البلل منها كثيراً، كأنما تعبا من البرد والبلل، لكنهما بقيا متلاصقين والأبخرة تتصاعد من فميهما، وتناست السيدة زمن لطخات الطين التي طالت تنورتها البيضاء.

- لم أعد أتذكر هذا المكان.. كأنّ أشياءً منه أزيلت أو أضيفت.

- الأشجار كبرت كثيراً والأكشاك شوّهت هذه الغابة.

كان يشير إلى ممر فرعي بين الأشجار:

- هل تذكرين ممراً مثل هذا..؟

- أذكره.

ثم تأملت المكان بعين قديمة:

- كانت هذه الأشجار صغيرة وقصيرة، ولم تكن هناك مصاطب.. كنا نمشي ولا نتعب كل النهار.

ثم مالت عليه أكثر:

- العشاق لا يجلسون لأن الوقت يمضي بهم.. هههههه.

عالج السماعة الصغيرة، ورفع السلك الرابط فوق أذنه:

- أظن أن الحديقة كانت أوسع.. تمام؟

تطلعت السيدة البيضاء حولها وتفحصت الأشجار العالية من كل مكان، وحاولت أن تمد بصرها أبعد من ذلك:

- هي ذاتها الحديقة كما أتصور، لكن ألحقت بها بعض المباني الخدمية والأكشاك والبنايات التي لا معنى لها.

تحسرت السيدة وهي تمسك صدرها:

- يبدو أنهم يقصّون أشجار الغابة!

- هذه الأشجار عمرها أطول من أعمارنا.. ربما سيقضون عليها.

قالت لتستبعد انفعالاته المتوقعة:

- ربما سيجمّلون بعض الأماكن فيها بزراعة أشجار جديدة.

وأضافت بشيء من الأسف:

- جمالها أنْ تبقى كما هي.. قديمة الأشجار والذكريات.

ثم أكملت بتوتر خفيف:

- لا يمكن لأحد أن يقضي على تاريخ الأشجار، فهي زمن قديم وفيه حقائب ذكريات مجتمع كامل.

تمسك صدرها وتتنفس بعمق.

انتبه العجوز إلى حالتها التي تداهمها أحياناً، فهو يخشى من اضطرابات قلبها التي يعرفها، لذلك أبعدها عن جو الأشجار:

- لمحت بحيرة البط سريعاً، لكن سنعود إليها حينما تدور بنا الحديقة.. أتذكرين أسراب البط الجميلة؟

هزت رأسها وعلامة شرود في وجهها:

- البط الوديع ببياضه الناصع.

كفّ البرق المتناوب وانقطعت أغصانه الضوئية، فظهر أكثر من شخص من بين الجذوع المتلاصقة، بينهم شبّان ملؤوا الفضاء بصخبهم منسجمين بمرح ظاهر مع شابات صغيرات يرتدين تنورات الزي الدراسي برؤوس كلها محجّبة، لكن افترق اثنان من الجمع الصغير، وجلسا على مقربة من مصطبة السيدة وعجوزها التي ظلت تنظر إليهما بفضول.

أحاط الشاب فتاته بذراعه، وكانت تبدو خجلة ومترددة بعض الشيء، ولم تسمع السيدة زمن ماذا كان يهمس لها، غير أنها بحس غريزي أنثوي تأكدت من أنه يبث لها حباً بعبارات جاهزة ظل يكررها ويلمّعها محاولاً اقتناص قبلة سريعة، بينما الفتاة تتمنع وتحاول الفرار أكثر من مرة، غير أن يد

الشاب التي تحيطها منعتها من النهوض والالتحاق بجماعتها الذين تواروا خلف الأشجار.

- أتذكر..؟

ضغط العجوز على سماعة أذنه وهو يدني رأسه من وجه السيدة التي بقيت تمسك قلبها برفق، كما بقيت شاخصة النظر إلى الشاب وهو يحاول بجهد واضح أن يقبّل فتاته المتمنّعة التي كانت تفضّل الهرب والبقاء في اللحظة ذاتها؛ كما كانت السيدة تحدس ذلك من دون شك، إلا أن الشاب تمكن أخيراً من أن يقتنص شفتيها بقبلة سريعة غير مركّزة، فيما تمكنت الفتاة من أن تنتزع شفتيها وتقفز كالملسوعة، متعثرة وخجلة، وغابت بين الجذوع المتقاربة.

ضحك العجوز وهو يراقب المشهد الطفولي الرومانسي:

- ذاكرتكِ جيدة هههههه.

ضحكت السيدة وهي تستدعي صورة مماثلة حدثت منذ زمن طويل:

- كنتُ أرتجف من الخوف.. كنت أعتقد أنكَ ستغتصبني.

- هههههههه.

- كانت قبلة مخجلة لي.. لكنني بقيت أياماً أعيدها في ذاكرتي.

هدأت السماء إلى حد جيد وكفّ المطر نسبياً، وظهر كثيرون ممن كانوا يختفون تحت الأشجار والمظلات والحوانيت والأكشاك أغلبهم من طلبة المدارس والكليات والقليل من النساء الغامضات اللواتي لا يمكن لأحد تفسير وجودهنّ في نهار غزير المطر، الأمر الذي شجّع السيدة أن تنهض

وتقود عجوزها من دون فكرة واضحة، سوى أنها كانت تشعر بسعادة صغيرة أملاها المكان بطقسه الأسطوري الشخصي العائد من ملفات الذاكرة الكثيرة، تتقدم قبلها وتشير إليها بطريقة زرعت فيها إحساساً بأنها لابد أن تكون سعيدة الآن فهذا يوم لا يتكرر.

قُبلة الماضي السعيد

دارا حول الأكشاك الصغيرة التي تتباعد عن بعضها، وتحاشيا الاختلاط بالآخرين لاسيما الشباب الطائشين الذين أورثوا المكان شيئاً من الصخب والفوضى والطين، وقادهما رصيف متكسر الحافّات إلى بحبوحة خضراء باردة، فاختارا مصطبة تطل عليها الشمس مباشرة من فجوة غيوم ثابتة إلى حد ما.

كان العجوز أكثر حرصاً على وردته الوحيدة، وكان يتطلع إليها بين وقت أخرى، قلقاً من ذبولها السريع، فظل يمسّدها ويلمّع أوراقها الناعمة كفراشة لا يريدها أن تختنق، حتى جلس إلى جانب السيدة وهو يمتثل لبقعة الشمس الطالعة من فجوة شجرية، فأشاعت دفئاً صغيراً في جسده.

- كأنني في متاهة.. أتذكر ولا أتذكر.

- مرت سنوات طويلة على مجيئنا هنا لأول مرة.

- خمسون سنة تقريباً.. تغيرت الحديقة كثيراً.

تطلع العجوز إلى ساعته البتينة وكانت تشير إلى الحادية عشرة، فضغط على رأسه في محاولة استذكار يوم بعيد كان فيه المطر غزيراً وجامحاً، لكن صورة الشاب وفتاته التي قبّلها قبل ساعة تقريباً اجتاحته كثيراً، وكلما حاول إزاحتها من رأسه عادت إليه بقوة، مثلما عاد المطر يستحث ذاكرته المتعَبة، وكانت السيدة ما تزال تتطلع إلى المكان حتى نهضت وبقيت تراقب الأشجار القريبة المتشابكة، كما لو أنها تبحث عن شيء ما فقدته ذات مرة.

- زمن.

ناداها العجوز وهو يعيد التطلع إلى ساعته.

عادت السيدة بخطوات أكثر بطئاً، وبقيت واقفة وهي تحمل باقة الورد المبللة وحقيبتها البيضاء معلقة على كتفها.

- أذكر قبل أن ينتصف النهار أننا كنا هنا.

- أذكر هذا.

- وكان المطر غزيراً.

- أذكر هذا.

جلست إلى جواره وتركت باقة الورد في حضنها ومدت ذراعها على كتفه:

- هههههه يوم قبّلتكِ هنا.

- هههههه كنتَ شيطاناً.

- كنت أحبك كثيراً.

- كنت أود أن تقبّلني لكنني كنت خائفة.

- كنت أعتقد أنه يجب أن أقبّلك.

- كنت أريد ذلك وقتها.

- كنت أعتقد أن القُبلة هي التصريح بالحب.

- كانت القبلة في ذلك الوقت تشبه الزواج!

- هههههه.

- كنت خائفة وأشعر بالبرد.

- كنت مجنوناً بك.

- وكنت أنا أيضاً.

- كنت أظن أن القبلة هي عبارة عن مهر يقدمه العاشق إلى حبيبته وفعلت ذلك.

- كنتَ قد قدمتَ لي مهراً عجيباً هههههه.

سكتت زمن ودفنت جسدها أكثر في جسده النحيل:

- بعد خمسين سنة يعود مثل هذا اليوم وكأنه حدث بالأمس القريب.

هرش رأسه وسألها:

- أتذكرين متى كانت عندي رغبة لتقبيلك؟

- لا.

كان وجهها يبتسم وهي تنظر إلى شفتيه:

- منذ المنحوتة.. منذ موديلك القديم. كنت أركز على شفتيك وعينيك وروحك الملهِمة.

- هههههه.

نظرت إليه بعينين دامعتين، وكان العجوز يشعر بالامتنان إلى زمن بعيد، حاول أن يكونه في هذه اللحظة الباردة، التي ملأته روحاً جديدة بوجود سيدته الحبيبة القديمة، التي غيّرت فيه فكرة السفر إلى الخارج للاحتفال بيوم كهذا في حديقتها الوطنية القديمة.

اقترب وجهها منه، وأمكنه ملاحظة التجاعيد التي حاولت السيدة إخفاءها بالماكياج البسيط، لكن رائحة قديمة اجتاحته هي مزيج من المطر والتراب، فأدنى وجهه منها، ومسّت شفتاه شفتيها ببطء، ثم التصقتا بقبلة

متعثرة حينما زحفت شفاههما من موضع الشفتين الحميم، لكنهما حاولا معاً أن يلتحما بشكل مباشر؛ وعادت الشفاه تلتقي بعناق طفولي ماضٍ انبجس من لحظة المكان والحديقة القديمة التي رافقتهما في مثل هذا اليوم، فسقطت باقة السيدة بين قدميها وهي تتشبث بعجوزها، بينما تشبث العجوز بوردته الوحيدة وهي عالقة بين أصابعه من وراء ظهر المرأة التي غابت كثيراً في قبلة المطر والطين منقطعة عن التنفس وقتاً طويلاً، لولا انتباههما المتأخر لبعض الشبان الذين التقطوا لهما أكثر من صورة متسارعة، وهم يضحكون لهذا المشهد الاستثنائي الذي حدث قبل خمسين سنة يوم كانت السماء تمطر وكانت الحديقة أكثر اخضراراً وفضاؤها أكثر اتساعاً. وقتها لم يكن هؤلاء الشبان في الحياة.

فكّ العجوز شفتيه وهو يشعر بشيء من الخجل أمام الشبان الذين انسحبوا بخفّة، وكأنهم شياطين بعدما وثّقوا تلك اللحظة الغارقة بالشغف السبعيني المتأخر. فيما طرحت السيدة رأسها على صدره كأنها في إغفاءة، بعدما ضمّت شفتيها وتنفست بعمق.

همس العجوز وهو ما يزال يشعر بلذة تجتاح جسده:

- طلعت الشمس.. لا يزال لدينا وقت كافٍ.

أضفت الشمس، التي تحررت من الغيوم، الكثير من الدفء، وكشفت باقة الورد التي كانت واقعة تحت قدمي السيدة. فرفعها العجوز ومسح الطين العالق ببعض أوراقها وقدمها إلى سيدته المنتشية الذائبة، فيما بقي يحمل الوردة الحمراء الوحيدة بيده اليمنى وهو ينظر إليها.

رومانسيات إلكترونية

(1)

درجا بخفة تحت الشمس، محاذرَين من الطين وسيول الماء الصغيرة المتفرعة من المماشي والممرات الجانبية. وبقيا يتجنبان تجمعات الشبان الطائشين المتخاطفين بين الممرات لمطاردة الفتيات والمراهقات الصغيرات ونساء المطر الغامضات المتجولات في كل مكان. وكانت الأغاني التي يبثها الشبان من موبايلاتهم ساذجة ومملة وغير مهذبة، كما كان العجوز يفكر، وهو يحصي الخطوات ويلتف مع سيدته في أكثر من ممر، قاطعَين مجموعة متراصفة من حوانيت نصفها مغلق وأكشاك تبيع السندويتشات والشاميّة والكرزات وعلب الكولا والمياه المعدنية، ذارعَين أرصفة قصيرة وشجيرات آس قصيرة حديثة الزرع وصولاً إلى الغابة الشجرية الأخرى التي كانت السيدة تسأل عنها منذ البداية. تلك الغابة الصغيرة التي يمكن للمرء أن يتخفى فيها بعيداً عن عيون الآخرين وفضولهم لتقارب جذوعها وكثافة أغصانها بأوراقها القديفية السميكة.

- غاباتنا القديمة.. بيتنا الأول.. أشتاق إلى رؤيتها من جديد.

وجدا نفسيهما في مكان آخر، أمام قامات شجرية سامقة وأغصان مكتظة بالعصافير والأوراق والأعشاش، كأنما انبثقت حياة أخرى مخفية هنا. ولم تكن الشمس قد أنارت المكان بما يكفي، بسبب التقاء الأغصان العالية كسقوف تسبغ الكثير من الظل البارد؛ لكنّ بقعاً صغيرة منها كالدراهم قد سقطت على الأرضية المعشبة، فبرقشت جسدي العجوز وسيدته وهما

يشمّان روائح الأشجار بعد المطر بحس ما يزال قديماً عمره خمسة عقود؛ يوم كانت الشمس هي ذاتها والمطر ذاته والأشجار ذاتها ولم تغير أماكنها، بل تطاولت وعبرت الكثير من حلقات الفضاء، واشتبكت في القمم البعيدة كمظلات خضر تحجب العشاق الصغار تحتها.

(2)

كانت السيدة تبتسم للنسيم البارد وباقة الورد في يد واليد الأخرى تطوّق محزم العجوز السعيد أيضاً، وحقيبتها المتدلية على كتفها تضايقها بعدما يئست من الاحتفاظ بنظافة تنورتها البيضاء من الطين المتناثر عليها حينما دخلا الغابة الصغيرة الباردة؛ وبقي جسد العجوز يلتقط نسماتٍ باردة عجّلت في ارتعاشاته التي تحمستها السيدة وهي تدبُّ معه ببطء وهدوء.

- ياه.. كل شيء كما هو.

دس سماعة أذنه بشكل مباشر، وهو ينصت إلى سيدته السبعينية:

- كنا هنا أكثر من مرة.

تمتم رافعاً رأسه، وكانت العجوز تجيل بنظرها بين جذوع الأشجار الغليظة، وفي داخلها ينمو شعور بأنها تدخل كهفاً شفافاً له تاريخه الشخصي الذي انبثق من هنا ذات يوم ممطر، وحلّق في خمسين سنة متعاقبة بين أفراح صغيرة وأحزان متداخلة لم تشأ أن تتذكرها مرة واحدة، سوى ما يأتي إلى ذاكرتها الآن طيّعاً وراسماً أمامها جذوة من جمال لّما تزل مستعرة لم تنطفئ في روحها وقلبها كما تعتقد، مؤكدة لنفسها أن ذاكرة المرأة أكثر امتلاءً من ذاكرة الرجل.

نتحرك في الزمن

(1)

مصطبة مائلة وكالحة غسلها المطر تقريباً بقيت من الأثر القديم كلوحة مهجورة في متحف مهجور، تعاقب عليها التراب المبلل والأوراق الساقطة الملتصقة بها وأكياس النايلون وقشور الحَب والفستق، فبقيت هرمة ووحيدة.

تطلع إليها العجوزان، وشاهدا بقع شمس تقبع عليها، فاكتفيا بمساحة صغيرة، بعد أن مسح العجوز جزءاً منها بقطعة كلينيكس أخرجها من جيب بنطاله، فجلسا محتضنين بعضهما.

- أشعر كأنني في الماضي.

قالت السيدة وهي تشم باقة الورد:

- كثيراً ما كنّا هنا.. الماضي فكرة طريّة أحياناً.

وجد أنّ به حاجة لأن يضيف:

- لم نعد أنا وأنتِ مهمَّيْن في هذا الزمن، فلنا زمننا الذي انتهى، ولكننا بقينا في الزمن كآثار تتحرك فيه.

كانت السيدة تصغي والعجوز يستكمل:

- نحن آثار حيّة تتحرك.. ربما لتقول حكمة بليدة أو تملأ بعض الفراغات التي تتركها الأجيال الجديدة الغبية.

تساءلتْ بقلق:

- وهل نحن عبءٌ على الحاضر؟

مسّد العجوز باينباغه الطويل:

- لا.. ليس بهذا الشكل.. فنحنُ زمنٌ مضى على كل حال.. وتعاقبت علينا أجيال، ولكل جيل زمنه وآفاقه وحياته.

- أشعر وكأننا فراغ في فضاء كبير.

- نحن فراغ ضروري بين هذه الأجيال.. نحن وجهة نظر وزاوية جمالية بقيت حتى اليوم.

- سينتهي الفراغ ذات يوم.

قال بجدية تعرفها سيدته عنه:

- الحياة عبارة عن فراغات فنية مطلوبة يا زمن. والحياة كتلة جامدة إن لم تكن فيها فراغات.

استدركت السيدة وهي ترى بعض الآليات الغريبة:

- إنهم يقطعون الأشجار ويقتلون كل ذكرياتنا.

شمّ الوردة الوحيدة بيده:

- تغير الوقت وتغيرت الحياة.

انتبهت إليه كأنها تلميذة صغيرة:

- ما عادت الأشجار ذات قيمة كبيرة.. الآن تصلح حطباً أو شرائح ألواح للنجارين.

واصل شم وردته الحمراء:

- عشاق هذا الزمن لديهم وسائل سريعة ومتطورة وكلها جاهزة تختصر الوقت كثيراً.. بل وتختصر حتى العواطف.

كان يتكلم بألم وهو يمسّد باينباغه الطويل:

- العواطف الآن أصبحت إلكترونية، والرومانسيات عبارة عن أزرار صغيرة، والعلاقات ليست كما كانت بريئة ورائعة وحقيقية.

رفعت الباقة إلى وجهها وقالت:

- على هذه الأشجار كتبنا الكثير من الحب والأمل؟

ضغط على سماعة أذنه، بعد إن ترك الوردة الحمراء إلى جانبه على المصطبة، ثم تطلع إلى ساعته:

- أذكر.. كنت أكتب إليك الكثير من كلمات الحب، وأرسم قلوباً لا تُحصى على كل جذع.

شدّت يدها عليها وضمته أكثر.

- كنت آتي بعدك مع صديقاتي، وأكتب إليك أيضاً وأرسم سهماً إضافياً هههههه.

لكنها تساءلت بعد لحظات صمت:

- هل بقي الماضي؟

قال العجوز:

- الأشجار هي الماضي والتاريخ القديم الذي ما يزال حياً.. لكنه ليس مهماً أبداً.

عادت السيدة توضّح:

- وهل بقيت الكتابات منذ ذلك التاريخ؟

- سنحاول أن نعثر عليها قبل أن يقطعوا الأشجار.. لكن حتى ينتصف النهار كي نكون في تمام المناسبة والذكرى.

وأضاف بعد أن شمّ وردته الصغيرة:

- لنكون في الماضي الجميل في مثل هذا اليوم حينما كتبنا أول حرفين من اسمينا، ورسمنا أول قلب على أكثر من شجرة.

صمتت بانتظار اللحظة المناسبة التي ستأتي، فقطع صمتها كأنه يريد أن يعترف:

- منذ تلك اللحظة أحسست أنك منحوتتي الوحيدة يا زمن.

ازدادت التصاقاً به وهي تحبس دمعة صغيرة لا تريدها أن تسقط، منتظرة فاصلة الزمن الذهبية التي تتسارع في ساعة البتينة التي يطالعها العجوز، فيما بقيت ذراعه الأخرى تشد على كتفها؛ مراقباً الصمت المحيط البارد المحيط بهما، شاعراً بلحظة الجمال التي اقتطعها منذ الصباح الباكر وصولاً إلى منتصف النهار الذي سيلتحق بزمنه القديم خلال بضع دقائق تأتي بطيئة، لكنها ساحرة وجميلة ومفاجئة، وما تزال الوردة تقاوم ذبولها منذ الصباح بيده. وغمامة صغيرة على وجه السيدة، أمكنه أن يلاحظها وهي تستسلم لمنطق الزمن الذي قاله العجوز قبل لحظات.

(2)

تطلع إلى بتينته الصغيرة من جديد وقلبه يخفق:

- حان وقت الماضي في هذه اللحظة.

ثمة أجراس مخفية في أعماقه دقّت في هذه اللحظة حين انتصف الوقت والنهار والزمن البعيد، فضمها وهو يقدم وردته الوحيدة إليها بمناسبة مرور خمسين عاماً على لقائهما الأول:

- نصف قرن من الحب تختصرها هذه الوردة لأنها أنت.. وهي الحديقة.. وهي الغابات الصغيرة التي تجولنا وحكينا فيها وزرعنا الحب والأمل فيها. وأنت منحوتتي الوحيدة التي لم أكررها في حياتي، لكنني بقيت أكتب عنها وحولها في كل الجماليات التي مرت في حياتي.

تمسكت بأصابعه قبل أن تتمسك بعروة الوردة، ونظرت إليه بعينين دامعتين، وكانت شفتاها ترتعشان وهي تقدم له الباقة الملونة التي جمعتها من حديقة البيت الصغيرة، فتعاقبت أيديهما كسيفين متقاطعين، ثم انفرطت بتبادل الهديتين.

- أنتِ هذه الوردة التي قاومت الذبول، وأنت منحوتتي الوحيدة التي صمدت خمسين سنة وبقيت أتطلع إليها بشغف ولا أتعب.

مال عليها، وقد بدت ترتعش قليلاً، واحتبس الكلام بين شفتيها وهو يسحب وجهها بيديه الضعيفتين ويتطلع إليه بشغف، مدنياً شفتيه من شفتيها، متناغماً مع حدث ماضٍ لا يريد أن ينسى لذته المسروقة في يوم كان كثير المطر، يوم كان جالساً في تلك اللحظة الموغلة في الزمن على مصطبة خشبية محيطاً بوجه برّاق بالجمال والعطر والنضج؛ خائفاً، متردداً، محتقناً، وهو يقبض على شفتين ناضجتين كحبتي مشمش ما يزال طعمهما حلواً، كما في اللحظة التي امتزجت فيها صورة الأمس وهو يطبق على مشمشته القديمة التي جفّت كثيراً؛ ليبللها بلسانه ويمرّر شفتيه بينهما ويمتص اللذة

الماضية تحت ظلال باردة لغابة صغيرة، ضمتهما لأول مرة في قُبلة خائفة ومسروقة من نهار ممطر، بعيداً عن كتب الدراسة ودوام الجامعة في سنتها الأولى. وقبل أن تولَد منحوتته العظيمة التي حولت أصابعه فيما بعد إلى حروف وكلمات وجماليات تقتفي أثر الطين والحبر واللون.

كما لو انتهت عصارة المشمشة وتخشبت، فتح شفتيه عنها وأزاح جسده النحيل دائخ الرأس بعينين مضطربتين قليلاً؛ تشابكت أمامهما الأشجار، واشتبكت لحظات قليلة حينما انغلقت كوّة الشمس وتدفقت غيوم كثيرة حاجزة الوجه البعيد للسماء.

أشاحت السيدة بوجهها إلى طرف آخر، كمن تشعر بالخجل القديم الذي رافقها أياماً طويلة لم تستطع فيها النوم والمذاكرة، وظلت تعيد سعادة الغابة كل وقتها مثلما تعيد جمال الشفتين الرقيقتين وهما تستسلمان لفورة الرجل الذي كان أفتى من هاتين الشفتين اللتين عاشت معهما نصف قرن وعرفت كل اختلاجاتهما وشغفهما ورطوبتهما وبللهما.

تركت السيدة الوردة الحمراء على المصطبة، كما ترك العجوز باقة الورد إلى جانبه، وتشابكت أيديهما، وهما يتفقدان الأثر القديم بين شجرة وأخرى.

كأنّ الماضي اختفى

(1)

جذوع مقتولة بسهام وفيرة مغروزة في تدويرها الأسطواني، تركت آثاراً وندوباً صغيرة، وتحولت قشورها الصلبة إلى ألواح أسطورية بالزخارف المحروقة والحفريات والحروف الطامسة والرسمات المدببة ورؤوس الأقلام التي بقيت بعض نبالها المبريّة مكسورة فيها.

كانت الأشجار الفارعة شاخصة ونابتة كما كانت.

- أين سنجد حروفنا بين كل هذه السهام القاتلة هههههه؟

وضعت السيدة زمن نظارتها على عينيها وهي تقرأ في جذع شجرة قريبة، تداخلت فيها كتابات متزاحمة، وترى قلوباً ملونة وسهاماً تخترقها من كل جانب صاعدة ونازلة، بعضها حال لونه وبعضها طوته سنوات الغبار واستحدِثت عليه كتابات ورسومات جديدة. لم تسلم هي أيضاً من رسومات وكتابات متعاقبة محفورة برؤوس مفاتيح أو أنصال صغيرة على لحاء الأشجار المتشقق، قضت تقريباً على كتابات الأقلام الجافة وأقلام الرصاص والحبر.

دارت حول الشجرة أكثر من دورة، ودار العجوز حول شجرة ثانية أكثر من دورة، وقد ركّب على عينيه نظارته ذات القعر العميق. وبدأ يقرأ في دوران بطيء ورأسه يرتفع وينخفض حتى حدود الكتابات والرسمات الصغيرة التي دوّنها عشاق كثيرون مجهولون مروا من هنا وأقاموا بين جذوع الأشجار ووزعوا شهقاتهم وأنفاسهم السريعة واحتراقاتهم وشغفهم وآمالهم في مدونات

عاجلة، بصموا عليها وحفروها برؤوس السكاكين الصغيرة والمفاتيح وقلاّمات الأظافر، من أجل إبقاء بصمات صغيرة في تاريخ الأشجار العالية التي تبقى بعدهم كمخطوطات مفتوحة للعشاق الذين يدونون تاريخ الحب وتاريخ الغابة وأشجارها وأزهارها وأمطارها وسنواتها الطويلة.

(2)

تركت السيدة شجرتها الأولى، وافترقت عن العجوز تطالع الكتابات المتراكمة على جذع شجرة أخرى، وانصرف العجوز إلى شجرة من جهة أخرى، يحدق في الرموز والحروف والرسمات المتراكبة على بعضها، مستحثاً ذاكرته باستحضار شكل الأشجار وأمكنتها القديمة التي كتب ورسم عليها خلجاته الشابة أكثر من مرة، لكنه وجدها متشابهة في أطوالها، وأجسادها محفورة من كل مكان تعاقبت عليها الأيدي والمشاعر وآلاف اللحظات المجنونة التي تكتب وتخط وترمز وترسم قلوباً وسهاماً منطلقة برؤوسها المثلثة، بألوان حائلة امتزجت ببعضها بطريقة مثيرة، حتى تداخلت أو انمحت أو انبجست عنها خيالات متقاطعة في أثر ظاهر وغير ظاهر، كأنما العجوز- في لحظة البحث عن ماضيه- يثير زوبعة من الذكريات كانت نائمة تحت وطأة الزمن والتاريخ؛ فتستيقظ من تحت اللحاء الأسمر المبلل، وتتقادم تباعاً بأشكال فقدت نضارتها الأولى، لكنها بقيت قريبة من روحها في إشاراتها السريعة ورموز أسمائها الأولى وقلوبها المتآكلة بفعل الزمن المتسارع؛ ومثله السيدة زمن التي كانت تحث نظرها الكليل على اللحاء المقشر، وتحاول إلصاق أطرافه المبعثرة كما لو تُكمل قلوباً قَسَمتها شظايا طائشة أو حركات عبثية مقصودة؛ فتُعيد حرفاً ضل مساره

وافترق عن الحرف الآخر أو تثبّت ذكرى كتبتها ورسمتها يدٌ عاشقة، سرقت من الوقت جزءاً منه، والتصقت هنا تقاوم عوامل التعرية شاخصة ومتعاقبة مع الفصول الطويلة التي شهدتها حديقة البلاد العملاقة.

(3)

فرقتهما الأشجار وتواريخها الكثيرة، فابتعدا عن بعضهما من دون أن يشعرا، تحت شمس تقاوِم ألا تغيّبها الغيوم المتقادمة، حريصين أن يجدا بعضاً من كتابات الأمس في الذكرى الخمسين لزواجهما؛ كطفلين يبحثان عن لعبةٍ قديمة دفنتها الأشجار وبركت عليها الجذوع، فبدوا كشبحين يتسللان بين الجذوع الضخمة، يراقبان تنفس الأغصان ويتحسسان نبض الحروف الشبحية القصيرة غير المتكاملة، ويسمعان همساً قديماً مختلجاً ما تزال الغابة تكتم أسراره.

انفصلا يميناً وشمالاً، وسحبتهما الجذوع السمراء إلى الجهتين، وعيونهما تحدّق في أوصال الحروف والرسمات المتقطعة وبقايا الآثار القديمة المدونة، تلك التي تعاقبت مع الوقت والظروف بتاريخ الحديقة العملاقة، لاسيما في غاباتها المتكاتفة التي أخفت وتخفي عشرات الأرواح النابضة بالحب والمسكونة بالجمال.

(4)

عند الشجرة العاشرة توقفت السيدة، بعد إن دارت حولها أكثر من دورة وفي كل مرة تطالعها حروف وكلمات نصفها أكله غبار الصيف أو مطر الشتاء، لكنها تتجدد بحروف غيرها ورموز أخرى أكثر وضوحاً من

سابقاتها. وعند شجرة جذعها أسطواني أملس توقف العجوز شاعراً بتعب عينيه الكليلتين ودوار خفيف في رأسه، وفي قلبه الخافق شعور بأنه سيعثر على أشجار الحب وتواريخ الجمال القديمة التي دوّنها منذ خمسين عاماً، يوم كانت الحياة أكثر بهجة وانفتاحاً، وفضاء الحديقة أكثر امتداداً وزرقة. وكانت زمن في تلك الآفاق المنسحبة تلهمه بالحب والجمال والسرية العظيمة حتى نجحت معه في امتحان المنحوتة الصغيرة وإلى اليوم.

(5)

نظر إلى أكثر من اتجاه، وهو يخلع نظارته المقعرة؛ كما كانت السيدة زمن قد شعرت بالإجهاد من دون أن تعثر على المعنى القديم الذي وثّقته الجذوع، فتلفتت بدورة كاملة باحثة عنه؛ ثم درجت منقادة إلى ضوء الشمس المتساقط خارج الغابة الصغيرة، مثلما انقاد هو أيضاً إلى الضوء الكثير الذي انتشر خارج الجذوع شاعراً بلذعات برد تسربت إليه بسبب كثافة الظلال الباردة ورطوبة الغابة الصغيرة التي دار حول بعض أشجارها، من دون أن يجد تاريخ بصماته العاشقة هنا أكثر من مرة.

التقيا عند حافة الشمس، قريباً من الأكشاك الصغيرة المتفرقة التي كانت على رصيف واحد، فتعانقت أيديهما واصطف أكتافهما وسارا تحت الشمس باتجاه المصاطب المهجورة التي كانت أمامهما.

(6)

جلست السيدة متثاقلة بشعور التعب الذي يرهق قلبها، فابتلعت حبّة صغيرة أخرجتها من حقيبته البيضاء، لكنها بقيت معظم الوقت سعيدة وإلى

جانبها العجوز الذي ينظّف أذنه ويدس السماعة من جديد في ثقبها ثم يلم جسده النحيف بمعطفه الثخين، ويتأكد من ثبات باينباغه الطويل.

- لا تتعبي قلبك يا زمن.

- قلبي سعيد معك.

- أخاف عليك حبيبتي.

شكرته بابتسامة سريعة وتساءلتْ:

- لم أجد شيئاً، كأن الماضي قد اختفى هههه.

- الأشجار مهملة والحديقة كلها عجوز.

تأففت السيدة:

- خمسون سنة ليست قليلة على الحياة التي عشناها وعاشتها الأشجار.. عمرٌ طويل مضى.

قال العجوز:

- جاء بعدنا عشاق كثيرون وملؤوا جذوعها بالكتابات والرسوم فصارت طبقات من الكتابة.. كتابةٌ تمسح كتابة ورسمٌ يمسح رسماً.. هذا هو التاريخ يا زمن.. تدوين أثر فوق أثر حتى تضيع المعالم الأولى.

- تقصد اللاحق يمحو السابق؟

- إلى حد كبير.

مطّت شفتيها:

- لكن الحب واحد في كل زمن ومكان!

- صحيح.. لكن وسائله اختلفت وتعددت.

- والمرأة هي المرأة أينما تكون.

- صحيح أيضاً.. لكن المشاعر الفطرية غطّت عليها المشاعر الإلكترونية مثلاً فصارت العلاقات أسهل وتغيرت الصورة النمطية للحب.

بقيت السيدة شاردة قليلاً، فاستطرد العجوز:

- تجدين في الحروب على سبيل المثال أن فطرة الحب تكبر كثيراً والزواج يكاد يصبح ظاهرة حتى بين الشباب الصغار، وهذا نوع من التشبث بالحياة.

استدركت السيدة وهي تمزح:

- اممممم لم تنتبه الحكومات إلى أن الحب يتكاثر مثل الفطر في هذه البلاد، فلماذا يشنّون الحروب؟

التصق بها أكثر، وهو يشعر بالدفء والراحة في هذه الذكرى البعيدة التي استطاع أن يستعيدها في مفارقة فوق سبعينية جميلة يشعر بجمالها، كأن روحه القديمة تجددت تحت الشمس أو الغيم أو المطر، وكمن يرى العمر المتسرب يعود إلى بداياته الفطرية العفوية في تمكين روحه من البقاء طويلاً، رغم تشاؤمه الذي لا يريد إظهاره في هذا اليوم المجيد.

يقول لها:

- عندما نفخر الطين لا يعود إلى مرونته السابقة، لذا عليك أن تشدّي من أزر الطين وأنت تخلقين العالَم الذي في رأسك والخيال الذي يداهمك. النار تُفقِد خواص الطين. تمتص ماءه ورطوبته وليونته. النار تؤرخ الخيال في الطين. النار زمن قاسٍ يا زمن. لكن هذا هو الحب.

- نعم. فهمت الزمن منك، وفهمت أن الخلق إعجاز والإبداع إعجاز والنبوّة إعجاز مثلما الحب إعجاز أيضاً.

الـ (ز) المنسرح
كساق بنقطته الوحيدة
(1)

نظر إلى عين الإوزة، فوجد أن ساعتين قد مضتا بعد منتصف الظهيرة.

تحسس بطنه:

- أشعر بالجوع.

- قلت لك أن أهيئ سندويتشات لكنك لم تقبل.

- الجوع ليس له معنى في كثير من الأحيان.

وافقته السيدة وهزت رأسها، ثم قال متطلعاً إلى الأكشاك التي يتجمع حولها بعض الشبان وفتيات الكليات:

- سآتي لك بسندويشة دجاج.

نهض متحسساً جيب قميصه ثم البانباغ المنسدل بطوله الرفيع، ومشى متباطئاً إلى أحد الأكشاك القريبة، وبقيت السيدة زمن تنظر إلى صفوف الأشجار المتعاضدة كما كانت قد رأتها قبل نصف قرن، بجذوعها الضخمة وأغصانها المتصاعدة وأعشاشها العالية، وفي روحها إحساس لم يغادرها حتى اللحظة بأنها ستجد مدوّنات العشق الأولى بالرغم من تراكم الزمن وانتشار الأغصان الكهلة على مساحات واسعة واقتطاع الكثير منها، حتى الجذوع السميكة لم تسلم من البتر والقطع والذبح لفتح ممرّات وطرق ضيقة وإنشاءات غبية كما كانت تفكر.

(2)

التفت على نفسها شاعرة بالبرد، وتطلعت إلى السماء التي بدأت تمتلئ بالغيوم، فغابت الشمس قليلاً وتوسعت الظلال على مساحات الحديقة المترامية، وظلت مصرّة على أن تمسح ذاكرة شاسعة السنوات وتوقظ فيها الماضي السعيد، فهي أجمل احتفال طفولي يعيد الحياة إلى الوراء ويستقدم روح الشباب الأول في تجلياته المتفتحة على الحب والجمال وسعادة الوقت الأخضر؛ كهذه الأشجار التي تندمج فيها مثل رحم أول وبشارات أولى أوصلتها إلى أكثر من سبعين عاماً حتى هذه اللحظة المزدانة بالسرور وبهجة الطفلة السبعينية الباحثة عن أثرٍ قديم، تركته كخربشات عاشقة، كما تركه العجوز الذي لم يفارق غابة الحديقة كثيراً، فظل مواظباً على رسمات القلوب وحرف الـ (ز) المنسرح كساق بنقطته الوحيدة التي يتفنن في إبرازها.

(3)

غيرت السيدة زمن مكانها إثر سقوط قطرات من المطر، وانضمت إلى بعض الأسر التي دخلت مكاناً مسقفاً بالخشب فيه بقايا أخشاب وهياكل حديد؛ برائحة عشب ومطر؛ تتذكر أنه كان قفصاً واسعاً للطيور الأفريقية الغريبة؛ بينما لحق بها العجوز الذي كان يحمل في كيس بلاستيكي بعض السندويتشات وعلبتي مياه معدنية ومثلهما علبتي سفن- آب.

الجندي الذي مرّ من هنا

(1)

تساقط المطر بغزارة مرة أخرى، وتوارى الطلبة والشبّان وبعض الأسر خلف الأكشاك والأشجار العالية، كما لو فرغت الحديقة من روادها إلا من قلة شباب يتشاطرون في القفز على البحيرات المتشكلة من المطر وتصوير السيلفي بأوضاع مختلفة، لكنهم سرعان ما ينسحبون إلى الجدران الواطئة والأكشاك وصفوف الأشجار المتعامدة لتبقى الأرصفة القصيرة فارغة، وتنتشر في الشارع الرئيسي بحيرات صغيرة، سرعان ما تلتحم عبر الشقوق الغاطسة لتشكّل بحيرات أوسع.

عادا إلى الأشجار العملاقة من جديد، فهي محمية إلى حد ما بسبب تعاشق أغصانها العليا وامتداداتها الممتزجة والمتشابكة مع بعضها، لكن المطر يتسرب على نحوٍ قليل ويسيل من الأعلى حتى يصل إلى المدونات الكثيرة، متسرباً ببطء ويتفتت في الغالب بين الشروخ والثقوب وحفريات الزمن في الجذوع.

دفعت جسدها إليه، وشبكت يديها على ظهره وهي تشعر بأنها غيرها:

- أنا شجرةٌ زرقاء.

لم يسمعها الرجل العجوز جيداً، فقد كان الهواء البارد يخفق في أذنيه، فسارع لدس السماعة في أذنه وأعادت الكلام:

- أنا شجرةٌ زرقاء.

لم يفهم شيئاً، لكنه ضمها أكثر ورذاذ يتطاير على وجهه من سقوف الأشجار.

قالت بفرح:

- لم أنتبه من قبل إلى أن هذه الأشجار هي أكثر أشجار الحديقة ولادة!

- لم أفهم.

رد العجوز ولم يستطع إخفاء موجة برد داهمت جسده النحيل.

- انظر إلى كل أشجار الحديقة وفي أي مكان، فلن تجد أعشاش العصافير والطيور إلا في هذه الغابة الصغيرة.

تطلع إلى الأعلى كمن يتأكد ويوافق على الملاحظة؛ فهزّ رأسه وقال:

- ملاحظة ذكية حبيبتي.

- سابقاً لم أنتبه إليها. لكنني منذ دخلنا صباحاً إلى هنا وحتى الآن لم أرَ أعشاشاً للعصافير والطيور إلا على هذه الأشجار فقط.

تأففت السيدة:

- إنها أشجار ولاّدة للذكريات. ولاّدة حب طويل.

خفقت في السماء رعود كثيرة، وأنار البرق المكان بشكل متعاقب، فزادت السيدة من التصاقها بالرجل، غير أنها انتبهت إلى تسرب الوقت ومضاعفاته في جو لا يريد أن يهدأ.

- سنبحث في كل الجذوع لما تبقى من الوقت.

(2)

توقفا في منتصف الغابة الصغيرة وبدآا يبحثان عن الأثر القديم عند شجرتين متقاربتين، بعد أنْ ركّبا نظارتيهما؛ فبدت الجذوع الرطبة أمام السيدة أكثر وضوحاً، وبدت أمام أنظار العجوز أكثر تشابكاً، بعد أن أزاح المطر المتسرب الكثير من الغبار المختفي، فامتلأت الشقوق فيها بالرطوبة وانحبس في بعضها رذاذ المطر.

- صارت تراكمات الكتابة فوق بعضها كأنها ألغاز.

قالت السيدة بارتياح كمن تحدّث نفسها:

- لم يكن العشق يوماً ما لغزاً.

تمتمت، ولم يسمعها العجوز المنهمك بملاحقة الخطوط والدوائر والقلوب والكتابات المشوهة التي تركبت على بعضها، وكان أحدثُها أكثَره وضوحاً لحرفين يجمعهما قلب محفور بشوكة أو مِدْية ذات رأس ناعم أو مفتاح سيارة حديثة، وفوقه مباشرة خط حاول أن يكون مستقيماً لكنه تعثر بنتوء خشبي صغير فمال إلى الأسفل ودخل في القلب السفلي، كأنما تقصد أن يشوهه. وقرأ العجوز فوق الخط: أنا الجندي عبدالله مررت من هنا.. السلام عليكم.

رفعت السيدة طرف لحاءٍ نافر، فوجدت قلباً صغيراً استدق فيه حرفان متقابلان، زاحمهما حرفان آخران بقلب جديد لم يفلح في أن يحل محل القلب القديم، لكنها تركت المساحة التي أمامها والتفت حول الجذع الأسطواني أمامها كأنه لوحٌ بابلي قديم لكثرة الرسوم عليه والحروف والكلمات المتداخلة ببعضها والرموز والخطوط، فأحنت قامتها وكأنها تتمثل قامة البنت ذات الاثنين والعشرين عاماً حينما كانت أقصر من هذا الجسد

المتغضن الذي يبتهج لتلك العاشقة الجامعية، وهي تسرق الكثير من الأوقات، وتهرع هنا لتكتب حروف اسمه متقطعة في جهة من الشجرة، وعليه أن يبحث عنها ويكتب حروف اسمها بين حروفه، ثم يرسمان قلباً أو قوساً ودائرة ويهربان إلى شجرة أخرى.

- اغمض عينيك.

تختار جذعاً بعيداً لشجرة تسبقها في الترتيب ثلاثة أو أربعة أشجار، وترسم بقلم الرصاص قلبها أو قلبه، وتضغط على أول حرف من اسمه في منتصفه تاركة فسحة مناسبة لحرفها الأول.

- هههههه افتح عينيك أيها الشقي.

يفتح عينيه ويعيد الإنصات إلى خطواتها التي ذهبت قريباً أو بعيداً منه، وبحاسة عاشق يتأمل الجذوع ويخطفها بعينيه حتى يصل إلى شجرة الحب بسرعة متناهية، فيضع الـ ز ملاصقاً لحرفه داخل القلب الرصاصي، ويبقر الحرفين بسهم صاعد، ثم تغمض عينيها وتدير جسدها ليخطو مبتعداً إلى شجرة أبعد مما تتصور، ويجرُّ حرفها الأول على جذع أملس في قلبٍ كبير، ويهرب إلى مكان آخر للتضليل.

- هيا.. زمن.

كانت لعبة صغيرة تتكرر بين الأشجار، لكنها ممتعة ورائعة أن تبحث عن قلب وحرف وكلمة ومفردة ذكية تجعل يومها سعيداً ولحظاتها مغمورة بالجمال وأشجارها الكثيرة تحتفظ باسمها ورائحتها وأنوثتها في حرفها ذي النقطة الوحيدة، حيث انصهر مع السنوات في نقاط كثيرة وحروف أكثر وعشاق يتناوبون على مر الأجيال لخمسة عقود بحلوها ومرها.

حارس البط

(1)

- زمن.

صاح العجوز وهو يعيد تركيب نظارته المقعرة على عينيه، ويثبّت سماعة أذنه.

كانت السيدة أبعد منه بسبع أشجار تدقق في الجذوع وتفتش عن حرفيها وقلبها المشترك تحت نظارتها البيضاء وجسدها يرتعش، كأنما تبحث عن زمن الشابة الصغيرة - المنحوتة الوحيدة التي بقيت حيّة في نور الحياة وغابتها.

نزع نظارته وقرّبها إلى الجذع، في محاولة لتكبير كتابات مختلطة وفرزها بوضوح، وحاول أن يجعل ذاكرته قريبة من الحياة الماضية، وهو يتنقل ويدور حول الجذوع الأسطوانية.

سلوى.. وداعاً

الذكرى أقوى من النسيان

أحبك ش

حبيبتي نونو NN

أنا شهيد.. أنتِ الوطن

لقاء س. ف

الحب جمعنا / الحرب فرّقتنا

يعيش الحب

الحرب شظية تجرحنا

أحبك حتى الموت

الذكرى ناقوس والناقوس أنتِ

أزيحوا راء الحرب

Love + love

أنتظرك كل يوم هنا

حبي أنت م

ليلى. ماهر L.M

غائبة على عنادهم

شمس الحبيبة

ياسمينتي Y

مشتاق. مشتاقة

لا يوجد دوام

أحبك

I miss u

(2)

التقيا عند منعطف مائل، وقادتهما صفوف الأشجار إلى ممر ضيق ممتلئ بالقش والأوراق الساقطة المبللة، تقاربت فيه الجذوع كثيراً. وبدت السيدة

أكثر سعادة وهي تبحث عن "زمن" قديمة كانتها ذات زمن أبيض وبريء. وكان العجوز يشعر بأنه في يوم آخر من حياته حرره من رتابة يوميات المتقاعد العجوز الذي يعتني بحديقته الصغيرة نهاراً كاملاً وطيور الحب المصوّتة التي لا تهدأ على مدار الليل والنهار.

- تغيرت عليّ الأماكن.

- الغابة كبرت.

قالت له بيقين:

- بقيت كما هي، والعشاق صاروا أكثر من استيعابها.

- لمحتُ الكثير من الكتابات تتجه إلى أعلى الجذوع.

وأشار بيده إلى الأشجار التي أمامهما:

- العشاق يبحثون عن فضاءات أخرى غير مزدحمة.

ومع انفتاح الفضاء بعد الممر الضيق، انفتحت بحيرة البط التي تتراكم فوقها طبقة خضراء أشبه بالعجينة الجامدة، ولم يكن المطر قد حفر فيها إلا قليلاً، فانقسمت سطح العجينة إلى شرائح، وظلت طافية على سطح البُركة من دون أن تلتصق من جديد.

- كان البط يجمّل البحيرة.

- أتذكرين كيف كنا نطعمه؟

- كنتُ أحمل في حقيبتي بعض الخبز.

تساءل العجوز كطفل:

- أين ذهب البط؟

جلسا على دكّة حجرية طويلة لكنها متقطعة كهيكل بناء متروك، كانت ذات يوم جزءاً من غرفة لحارس البط كما يتذكران.

- كان حارس البط رجلاً طيباً.

- أذكر مرة أن طفلاً تزحلق في البحيرة، فغطس وراءه بثيابه وأنقذه.

- كان وقتها الجو بارداً جداً.. أتذكر هذا.

اصطفق الجو برعد صاخب أفزع الطيور المرابطة على رؤوس الأشجار، فانتحيا جانباً تاركين الهيكل الحجري، ودخلا الغابة الصغيرة من جديد متلاصقَين وباحثَين عن مصطبة أو مظلة.

- تبقى الحياة جميلة مهما كبرنا.. إننا نجمّل الحياة إن بقينا عاشقين حتى النهاية.

- أتريد أن ننسى كل شيء ونبقى عجوزين متقاعدين في الدار؟

- أقصد أننا بقينا عاشقين حتى اليوم.. وها نحن نعيد الماضي ونبحث عن رسائل الحب وشفرات الحروف ووهج القلوب التي رسمناها لبعضنا في تلك الأيام الجميلة.

شدّت يدها على يده شاعرة بالبرد يجتاحها، وألقت برأسها على صدره وهي تتنهد:

- لم يبقَ إلا القليل.

انهمر المطر كثيراً، وظل صوته المثير يجلب انتباههما، فيما ظهرت أصوات الأشجار كأنها تئن. وبقيت أنظارهما تطالع السماء التي انفتحت عن أمطار أكثر. وأخذ العجوز يتطلع إلى ساعته البتينة وهو يحضن زمنه البيضاء التي

اجتاحتها موجة قشعريرة وتضايقت من مرور الوقت السريع، فاقترحت أن يبدآ جولة جديدة في البحث عن مدوّنات العشق القديم.

- سنسير بمحاذاة صفّي الأشجار.. أنت هنا.. وأنا هناك.

هرش العجوز رأسه:

- كنتُ أكتب على الأشجار كلها حرفك الأول.

- وكنتُ أرسم حرفك أينما أجد حرفي.

(3)

افترقا على صَفّي الأشجار، ينقبان بروح الأطفال الباحثين عن شيء أخفياه ليفاجئ أحدهما الآخر.

سمعته يقول:

- الذكريات القديمة مدفونة تحت الذكريات الجديدة.

كان ظهرها يستدير باستدارة الجذع المتين:

- إنها ذكريات متراكمة.. لسنا وحدنا العشاق في هذا البلد.

تساءل وهو يرفع طرف لحاء متشقق:

- لولا هذه الذكريات لصارت البلاد في خبر كان.

التفت إليها وكانت تبعد عنه ثلاثة أشجار:

- بالحب بقيت البلاد حيّة حتى اليوم.

- معك حق.. وإلا كيف مرت حروبها الكثيرة وبقيت الأشجار وذكرياتها حتى اليوم!

استدارت السيدة وهي تخربش بيدها على جذع الشجرة:

- الناس يعشقون ويكتبون ذكرياتهم.. لكنهم يحاربون ويموتون بلا سبب!

ترك شجرته بعد أن أتعبته المسوحات الكثيرة والتراكمات الكتابية على بعضها، حتى أصبحت مثل ورقة يشخبط عليها طفل بعشوائية، وتوجه إلى شجرة السيدة يبحث من جانبها الأسطواني الآخر:

- قبل ساعة وجدت كتابة لجندي يقول فيها إنه مرّ من هنا.

بحس أنثوي ما يزال متفتحاً:

- ربما إشارة إلى إحداهنّ قريبة من هذا المكان.

قال العجوز:

- يعشقون ثم يموتون من دون سبب.. والبنات يتزوجن آخرين..!

عقدت حاجبيها وهي منهمكة بالقراءة:

- الجندي الذي مر على شجرة واحدة مرّ قبله وبعده عشرات ومئات الجنود، ولا أحد يعرف مصائرهم.

كأنه تراجع عن قوله السابق:

- ربما هاجروا.. ربما قُتلوا.. مَن يدري!

افترق عنها باحثاً عن أشجارٍ معينة وهو يقول:

- مررنا كثيراً من هنا.

وكان يستحث ذاكرته ويعيد أوصال الماضي في هذا المكان فتمتم لنفسه:

- أمكنة الحب تتشابه.

ذهب إلى نهاية الممر، وتطلع إلى أشجار أخرى، فقادته غريزة البحث إليها عابراً انهمار المطر متدثراً بمعطفه الرمادي، بينما بقيت السيدة تحصي الأشجار، وتتطلع إلى قاماتها السامقة، في محاولة للتذكر واستحضار الأيام البعيدة التي فرت مع فصول الزمن الطويل.

- إننا نبحث عن إبرة في الأدغال.

قالت لنفسها بشعور منفعل، لكنه ليس يائساً على كل حال. وقفت أمام جذع أملس صلب وغير مقشر، وبانت الكتابات واضحة والقلوب الزرقاء أكثر وضوحاً، والمحفورة منها المبللة بنثيث الأمطار كمن تريد أن تتفتح مع المطر برموزها المشفّرة أو تخرج من الجذوع وتبدل هيئاتها الرمزية إلى وقائع حية؛ لكن السيدة ينتابها ما يشبه الخوف من أن تتحرك تلك الهيئات الرابضة على الجذع، كما لو أنها تخشى استيقاظ أموات من توابيت الزمن الغابر الذي أحياها حتى هذه اللحظة المليئة بالمطر، مثلما هي مليئة بالجمال الشخصي الذي لا تستطيع مغادرته، قبل أن تجد لذتها القديمة في مراهقة أولى قادتها إلى خمسين سنة حفلت بالحب والذكريات الحلوة، بالرغم من أشياء كثيرة وكبيرة لا تريد أن تهاجمها في موطن الحب الصغير الذي عرّفها على هذا العجوز الباحث مثلها عن روحين صغيرتين كبرتا مع الزمن والحروب والمآسي.

- لابد أن أزيل الأدغال وأستخرج إبرتي.

- كنتِ وقتها فكرة جارية في رأسي لمنحوتة صغيرة.

(4)

تمتلئ بشجاعة البحث من جديد، وهي تتأكد من الجذوع التي فتشتها، منقادة وراء ذاكرة سبعينية تمنّت ألا تتوهم أو يبتعد الخيال بها كثيراً؛ فالحديقة ذاتها والأشجار ذاتها وبحيرة البط غادرها البط وحارسها غير موجود. ربما قتلته الحرب أو هاجر إلى بلادٍ أخرى، والأكشاك جديدة على ذاكرتها والشبّان مائعون وطائشون أكثر من اللزوم، والفتيات القليلات محجبات وخجولات مولعات بالسيلفي ودردشات الواتس والفايبر، وربات البيوت مجعدات ومهمومات وأرامل شابات، والأطفال شياطين صغار مدللون وبكّاؤون على عربات الدفع.

(5)

استغرقه وقت وهو يتابع جانباً آخر من الحديقة، مبتعداً عن سيدته التي دفع المطر فيها روحاً أخرى كانت تستشري فيه أيضاً، محدقاً بقعر نظارتيه بكل الكتابات المسبوكة والمتشابهة بقلوبها وسهامها ورموزها وحروفها الأولى، وكان يبحث عمّا تحتها أو فوقها مستعيداً نصف قرن صعب، يوم كانت الأشجار عارية ووحيدة إلا من عشاق قليلين يتناوبون في الكتابات والرسمات ولا يوجد سوى المطر والشمس والربيع والورد الملون، قبل أن تولد الطائرات والقذائف والبارود في سماء الحديقة العريضة التي تتوسط قلبه قبل أن تتوسط المدينة. وتلك حكاية لا تنتهي أفسدت الحياة وجعلت الناس يتسابقون على كل لمحات الجمال، ويستولون عليها ويؤرخون تواريخهم الشخصية، قبل أن تندثر

وتطويها سنوات الظلم والضباب والغبار الذي اجتاح المدينة وحوّلها إلى مسلسل كآبات ضربت روحها.

(6)

تشابهت الحروف إلى حد ما أمامها، وأفرزت بصعوبة حرف (الزاي) المهيب، لكنها بقيت في شك، فهي تعرف كيف يجر عاشقها حرفها الذي يشبه الهلال المقلوب، وكيف يضع نقطته بروعة الحب التي كان يمتلكها.

لَفها نتوء بارز لحديدة داخلة في جذعٍ آخر، وقد خرج ذيلها المسنن الصغير كأنه حشرة محشورة قسراً.

أمكنها أن تراها وقد شقت قلباً محفوراً، واستقرت في وسطه ساحبة معها الحرف المجهول إلى عمق الجذع الصلب، فبدا القلب مثقوباً من منتصفه.

تحسستها بتردد، ودفعت عدستي نظارتها إلى عينيها أكثر، لتتأكد من أنها ليست حشرة ميتة، فارتد إصبعها شاعرة بوخزٍ خفيف وقلبها يخفق قليلاً. وحينما حاولت أن تسحبها، وجدتها غائرة كثيراً، ولم يخرج منها إلا الجزء الأخير.

- شظية.

تمتمت لنفسها وهي تعيد المحاولة، لكن وجدتها صلبة ومتماسكة من الداخل. كما رأت القلب المحفور متفتت الحواف ومخسوفاً بشكل كبير، كأن الشظية قوّضت جدرانه، بينما تفتت الحرف المحتمل وغار مع الشظية إلى العمق.

ارتجف قلبها وازداد نبضه أكثر مما يجب.

تمتمت لنفسها:

- لكن من أي حرب هذه الشظية؟

نقطة الزاي العظيمة

(1)

خفّ المطر نسبياً، وبدت الحديقة الواسعة مبللة، كما لو غرقت في البحيرات المتصلة ببعضها؛ حتى الشارع الرئيسي الذي يشطرها إلى نصفين تكومت فيه بحيرات صغيرة ومستنقعات متفرقة، مثلما غرقت الممرات وغطست فيه الحفر الكثيرة، وكانت بحيرة البط غارقة وفاض ماؤها من الجوانب كلها.

عادت السيدة مبللة بالمطر، فخلع العجوز معطفه ودثّرها، وقادها تحت مظلة أحد الأكشاك المغلقة، فبدا ببدلته ذات الردن القصير أكثر ضعفاً:

- سنتعب كثيراً من دون أن نجد دليلاً على الماضي.

لم تستطع إخفاء قشعريرة متسربة إلى جسدها.

- الماضي هو أن نزيل التراكمات التي جاءت بعده لنصل إليه.

وأضاف بقصد التوضيح:

- هناك حلقات إضافية كثيرة دُوّنت بعدنا لعشاق وعاشقات.

أحاطها بذراعه وهو يُدني وجهها منه:

- ليس العشاق والعاشقات وحدهم مَن يدوّنون مشاعرهم.

أكمل بصوت ضعيف:

- رأيت الأمر غير ذلك في جذوعٍ كثيرة.

انتبهت إليه:

- الجندي الذي قرأنا كتابته قبل وقت، كنا نعتقد أنه وجّهها إلى امرأة ستأتي بعده.

- هذا ما خطر لي.

قال العجوز بثقة:

- لا..

استدار وجه السيدة إليه فأكمل:

- إنه جندي عابر في حديقة عامة، وجد أن عنده وقتاً إضافياً قبل أن يذهب إلى محطة القطار القريبة، فأراد أن يثبت وجوده في تلك اللحظة حينما كتب بأنه مر من هنا.

- وماذا يعني هذا..؟

تساءلت السيدة، فواصل العجوز:

- يعني أراد أنه يقول بأنه حي حتى لحظة الكتابة.

تأفف قليلاً:

- وقتها لم يكن واثقاً من الحياة، فترك جملته الوحيدة لنا لتعبر الزمن، وهذا هو جمال الأثر الذي تركه.

عادت السيدة تتساءل وهي مقطبة الحاجبين:

- ترى هل بقي حياً؟ هل يتذكر أنه كتب جملة عابرة؟

تحامل العجوز على نفسه، وشعر أنه مجهد بعض الشيء:

- ليس هكذا بالضبط.. لكنه ربما هكذا.

- وهل ذكر اسمه؟

- عبدالله.. إنه كل الجنود. اسم رمزي كما أعتقد.

شردت السيدة قليلاً وقد هدأت ارتعاشات جسدها:

- هل وجدتَ كتابات أخرى لجنود غيره؟

- أظن ذلك.. فتجاوزتها لأني فهمت إشاراتها الصريحة.

تساءلتْ:

- وهل وجدت كتابات أخرى لغير الجنود.

تطلع إلى البحيرات الصغيرة التي سكنت وطفا عليها القش وبقايا أوراق وصحف:

- عشاق البلاد كثيرون والعاشقات أكثر.. لكن هناك ذكريات سريعة لشبّان صغار يأتون إلى هنا في مناسبات الأعياد أو مناسبات وطنية مثلاً، فيتركون خرابيش كثيرة لا معنى لها، أو يتركون أسماءهم وتواريخ وجودهم في الحديقة، فيمسحون الماضي من دون أن يقصدوا ذلك.

- رأيت مثل هذا فعلاً.. وأعتقد أنهم يتبارون بوضع أسماء حبيباتهم أو الحروف الأولى منها.

- صحيح.

تطلع العجوز إلى ساعته وسأل سيدته:

- هل تعبتِ..؟

- لا..لا.

- بقي من الوقت ساعتان أو أكثر بقليل.. أراك متعبة؟

تكلمت بصعوبة وهي تمسك قلبها:

- آلمتني شظية وجدتها مغروزة في جذع صلب وقد مسحت حرف العاشق أو العاشقة.

طمأنها العجوز:

- مضت حروب كثيرة على هذه الحديقة، ولابد من وجود شظايا وجنود وذكريات ومفارقات.

بقيت يدها على قلبها:

- لكن هذه الشظية مغروزة بعمق الجذع، وجاءت تماماً على الحرف كأنها قتلته.

كانت تشعر بالتعب واصفرّ وجهها كالليمونة. وتلبّد العجوز بغمامة غامضة، ولم يكن قادراً على إيقاف البرد الذي جلبه الهواء البارد بعد توقف المطر، فأخذ يستشعر البرودة ويختض جسده النحيل، فنهضت السيدة وخلعت المعطف الأسود ووضعته على ظهره.

- لا تتعبي قلبك.. البلاد فيها كوارث كثيرة.. والحمد لله وصلنا إلى هذا العمر.

- شيء عجيب أن يصل الإنسان في هذا البلد إلى عمر السبعين!

سكتا وتطلعا إلى أنحاء مختلفة في الاخضرار المحيط بهما.

أشارت إلى حقلٍ آخر في الجهة الخلفية قريباً من حديقة الحيوانات:

- أيضاً مررنا في ذلك الحقل كثيراً.. أذكر كان هناك مشتل أزهار مورّداً على مدار فصول السنة.

التقت يداهما وسارا متكاتفين من خلف حديقة الحيوانات التي انبعثت منها رائحة رطبة غير طيبة، وشاهدا بعض الأطفال يرمون الطعام والموز والكرزات على الأقفاص الحديدية.

- كان هنا مشتل أزهار.

بقيت السيدة صامتة وهي تنظر إلى حقل أجرد بلا شتلات سوى من بعض السنادين المكسرة والمتروكة وقد تراكم الطين عليها، وامتلأت أحواضها بنتفٍ من مياه الأمطار، وتحول إلى حقل بعشب يابس، لكنه الآن طري بسبب الأمطار الهاطلة منذ الصباح.

- تغيرت الكثير من معالم الحديقة، ولولا هذه الأشجار المتبقية ما كنت أستدل عليها.

لم يكن هناك غير بضعة شباب وطالبات جامعيات قليلات كلهنّ محجبات إلا واحدة نثرت شعرها المبلل، وكانت أكثرهنّ حركة في المجموعة.

يتدثرن ببعضهنّ باحتكاك أكتافهنّ وسيقانهنّ وهنّ يجلسنَ على جذع شجرة مطروحة على الأرض.

تأملتهنّ السيدة بحذر وهي تخطو بين العشب الميت، متجاوزة بعض الكتل الطينية وتجمعات المياه، ولم يُفلت العجوز يده من يدها وهي تتشبث به متحاشية الانزلاق أو التعثر، إلى أن عبرا فسحةً العشب المبتل اليابس، فشاهدا أكثر من شجرة مطروحة تلوثت أغصانها في الطين.

- أعتقد أنهم سيذبحون بقية الأشجار.

خمّن العجوز هذا وهو يجيل نظره إلى بعض الأشجار المقصوصة، فيما كانت آلة القطع رابضة تحت المطر، وبانَ أنها متروكة منذ وقت قريب مثل الأشجار المتروكة في الحقل، وتأكد أن مشتل الأزهار القديم لم يعد له وجود، والأشجار المحيطة به لم تعد تنفع كثيراً للعشق أو الكتابة أو حتى لذكريات الجنود؛ لكنهما واصلا التعثر باتجاه الحقل المتاخم الذي تطبق عليه أشجار اليوكالبتوس الوارفة، ساحبين جسديهما إلى شارع مبلط صغير.

- تذكّرني الأشجار المقطوعة بالتوابيت!

همست بخوف ولم يسمعها العجوز بسبب الهواء البارد الذي اقتحم أذنيه، فصفر فيهما وشيش كعاصفة صغيرة محصورة انبثقت من طبلتي أذنيه. وحينما وصلا الحقل الآخر، لم يجدا مصطبة سليمة، وكان بعض الشباب والشابات يقتنصون فرص القبلات بعيداً عن أنظار الآخرين بين الأشجار العالية وجذوعها الضخمة.

- كنا نلتقي هنا كثيراً.

شعر العجوز بأنها تخاطبه، فدسّ السماعة إلى عمق أكثر في أذنه:

- هذه الغابة الثانية التي كنا نفضلها أيضاً.

أمسك يدها شاعراً بالبرد بعد أن تخففت أشعة الشمس المائلة عن فترة ما بعد الظهيرة.

- كنتُ أحتضنك هنا وكانت المنحوتة تولد برأسي وقتها وأنا معبّأ بالشظايا والحروف المهملة.

سكت قليلاً، وحدقت بعينيه الضعيفتين وهو يستطرد:

- كنت وقتها أعيش خليطاً من الرؤى. أنتِ وكتابات الجنود والحديقة والغابة ومحطة القطار القريبة والوداع المؤلم.

توقفا قليلاً كأنهما يحددان المسار الجديد بين تقاطعات الأشجار التي لم تكن على صف واحد، إنما توزعت بطريقة عشوائية، فشكّلت غابة صغيرة تمتد إلى الجدار الأخير من الحديقة.

- أذكر أنني كنت أخشى أن نصل إلى الجدار الأخير للحديقة.

- كنت أدرك خوفكِ من المارّة الذين يتلصصون على الحديقة.

- المراهقون يدفعهم الفضول للتلصص، وكنت أخشى من أي أحد يعرفني.

لم يجدا أية مصطبة، بل بقيت آثار مساندها مطموسة بالمياه يعلوها عشب لم يخضرّ كثيراً.

(2)

خرج شاب وشابة من وراء جذع غليظ، ووضح عليهما الارتباك، بعدما أحسّا بوجود العجوزين الذين يدمدمان متطلعين إلى المكان كما لو يبحثان عن عش عصفورة بين الأغصان المتشابكة، وتمكنت السيدة من أن ترى الشابة وهي تعدّل من بنطالها الجينز وتسحبه إلى الأعلى، فقطّبت من حاجبيها، لكنها ابتسمت بوجهها قليلاً من دون شعور بالكراهية تجاهها، معيدة في رأسها سنوات الجامعة والهرب من المحاضرات والتجوال في الحدائق والأسواق وكتابة الرسائل المشفرة على هذه

الجذوع، لكن السيدة في سرها تبتسم وتقول إننا لم نكن نرتدي البناطيل الضيقة ولا الواسعة بل التنورات القصيرة التي تشعرنا بالهواء البارد مهما كان الصيف ساخناً.

قال العجوز:

- حتى نكسب الوقت على أن نفترق إلى جهتين ونبحث.

وضع نظارته المقعرة على عينيه، وبدت روح المثابرة فيه أكثر من الساعات التي مضت. واستعانت السيدة بنظارتها أيضاً، وسارت باتجاهٍ عكسي قافزة من بُركة إلى بُركة، وهي تتوقف مرتجفة محاوِلة أن تستدرك الماضي في أبجدية الحب القديم وما تركتها من آثار طفولية حميمة تسعى للقائها بعد خمسين سنة من الغياب القسري في مفاصل الحياة.

مرّ بعض الشبان يتقافزون بين الطين ويصورون مقالب شخصية بينهم بطريقة السيلفي، وتسلق أحدهم جذعاً عملاقاً بعد أن داس على الذكريات المحفورة بحذائه الرياضي المثقل بالطين، وصوّرته المجموعة التي كانت تراقبه وهو يعلو بجسده إلى نقطة بعيدة كقرد مشاغب بحركاته الاستعراضية التي تشبه حركات عناصر السيرك المتجول.

بقيت السيدة تنظر إليه، وقد بعثر ذاكرتها إلى حد كبير، غير أنها انصرفت من دون أن تفحص بقية الأشجار القريبة وهي تدمدم مستاءة، حتى ابتعدت بين الظلال، ولم تعد تسمع صيحات الشبان المستهترة.

أفرز العجوز رسماً شكك فيه أولاً، فهمس كمن يخشى أن يسمعه عابر هنا: كأنه لي..

وجد الـ Z المحفور متآكلاً حيث انفرطت ذؤابات الحرف العليا والسفلى، لكن القلب بقي يستوعب الحرف إلى حد جيد.. هل زمن وحدها تبدأ بحرف الـ Z؟ أذكر أني كتبتها مرة واحدة بحرف أجنبي ثم استهواني هلالها المقلوب ونقطته العظيمة.

استدرك ذاكرته ودار حول الجذع متأملاً حروفاً ورسماتٍ أخرى متعاقبة ومتداخلة، لكنه عاد إلى القلب وحرفه الأثير، واستعان بذاكرة أكلها الشيب والصدأ والزمن الطويل، كانت زمن فيه أكثر من جميلة، وكان حرفها الشعري لم يأخذ صيغته الشعرية الذهبية في قلبه بنقطةٍ عليا فوق هلال مقلوب وغير مكتمل حينما توطدت حروفهما ببعضها، فترك الحرف الإنكليزي الذي لا يُشعره بأنها زمن، فهي ليست Z وإنما هي "ز" بهذا الحرف الذي حفر فيه كثيراً وحيّرته النقطة الشفافة المستدقة في أعلاه، مثلما حيّره الهلال المقلوب الذي يشبه ساقاً مستريحة وتحتها فضاء أبيض إلى ما لا نهاية. تلك هي زمن الحبيبة التي طوت السنوات بالعشق والمحبة القوية التي لم تتجزأ حتى هذه اللحظة التي دخلت في المستقبل البعيد الذي وصلاه بدأب وصبر عجيبين.

(3)

لم تجد السيدة غير شجرة مطروحة كأنها زرافة ميتة وقد تآكلت معظم أغصانها، فبحثت عن مساحة نظيفة بعد شعورها بالإجهاد وما يشبه اليأس من العثور عن لحظات الشوق الكثيرة التي دوّنتها في أمكنة متعددة في فضاء الحديقة الكبيرة.

جلست على مضض، وكان الجذع المطروح ثابتاً وسط أدغال عشبية تغير لونها كثيراً. وكانت الشمس الأخيرة تجاهد أن تنعتق من الغيوم التي بدأت تتفرق لتظهر الشمس من كوىً صغيرة أخذت تتسع بالتدريج وتكشف النهار الذي لم ينتهِ بعد والكثير من الأشجار المتعامدة التي طارت منها العصافير في دفء ما تبقى من النهار.

(4)

حثّ العجوز خطواته في الطين من دون أن ينتبه إلى بعض الحفريات السريعة التي تجمع الماء عليها متفرساً بالأشجار بعين قديمة شاء أن يعيدها إلى بصيرته، وكان يستعيد الكثير من لقاءات الماضي وإنْ ضلت طريقها إلى ذاكرته المتعبة، بسبب المكان المعتاد الذي لم يظن يوماً أنه سيفارقه ويعود إليه بعد نصف قرن مع سيدته التي استغرقها الزمن معه في حياة متعددة الوجوه والفصول، كهذه الجذوع المطروحة التي شوهت الغابة بانفصالها عنها، مما حدا به أن يسأل بائع الكشك القريب بعد خط الأشجار الأولى.

- البلدية ستبني سوبر ماركت كبيراً لزائري الحديقة.

- وتزيل هذه الغابة؟

- أي نعم.. يقولون الأكشاك لا تكفي.

- وأين سيرمون كل هذه الجذوع؟

- كما سمعت اشتراها مقاول لغرض بيعها على النجارين.

ثم سأله الكشّاك بفضول:

- هل تعنيك الحديقة بشيء يا عم؟

هزّ رأسه بطريقة ظل الرجل الآخر ينظر إليه بغموض، وعاد أدراجه محدودب الظهر لا يريد أن يستوعب مجزرة الأشجار وصورة السوبر ماركت المقبلة، وأشكال النجارين في المدينة الذين سيقضون على ماضي الكتابات، ويشرّحون القلوب العاشقة التي كانت تسرق أوقاتها كلما أتيح لها ذلك، ويقتلون حروف الجنود العابرين إلى محطة القطار القريبة الذاهبة إلى الحرب، وتتفرق الحروف على الكراسي والمناضد والمصاطب أو تنطمر تحت الأصباغ الملونة وتضيع في متاهات الأثاث الذي تتقاذفه ورش النجارة في البيوت والمحال والدوائر الحكومية والملاهي والبارات والمقاهي.

لم يجد سيدته وهو يتلفت مقشعر الجلد، بينما كانت البرودة تهبط على الحديقة وتستطيل الظلال لتبدو كأنها أشباح آخذة بالاتساع والتطاول إلى الغابة الأخيرة المتاخمة للجدار الأخير الذي تخشى أن تقترب منه السيدة ذات يوم بعيد جداً، تمنى لو ينساه، حينما أخذ يعيد حديث رجل الكشك ببناء سوبر ماركت على أنقاض المدونات الرومانسية التي استولدت عشاقاً وشعراء يلهجون بحب حتى تبقى أصواتهم مزروعة على الجذوع إلى ما شاء الزمن.

شعر بحماسته تفتر قليلاً، مجيلاً نظره بعينيه الضعيفتين في أرجاء متفرقة ليلتقط سيدته التي أخفتها الأشجار والجذوع ونوبات البرد التي هبطت مع آخر النهار، وما زالت تدور وتحوم حول الجذوع الساقطة والواقفة؛ حتى استوقفها جذع عَرضي أملس وناصع غسلته الأمطار وقطع عليها المشى واستوقفها عنوة، فاتضحت على سطحه معالم أغلب محفورات الكتابات

والرسمات التي لفتت نظرها وهي تتوسط الجذع المطروح بجلوسها قبل وقت قصير.

مسّتِ الحروفَ والكلمات والرسوم بأصابعها المرتعشة، كأنها تخشى أن تحركها من مواضعها وهي منحنية الرقبة تطالع التكوينات التي كشفها المطر.

(5)

نزعت نظارتها وقربتها إليها لتكبّر في العدستين حرف الـ زاي المحفور بدقة وبرشاقته المنسرحة ونقطته الدائرية المحفورة أيضاً والتي تجمّع في بؤرتها جزء من قطرة مطر صغيرة. ومن ثم القلب المحفور الذي يحيط بحرفها الأثري الذي وجدها ولم تجده في جذعٍ مطروح في العراء تحت مطر النهار، ومن حوله محفورات صغيرة توارت ولم تصمد كثيراً وصارت ظلالاً شاحبة بنى عليها الجذع قشوره المتراكبة فغيرت من معالمها وتواريخها.

خفق قلبها وهي تنحني أكثر بنظارة حساسة تكبّر الحرف وتعيده إليها، وكادت تصيح على العجوز المختفي بين الأشجار لولا أنها تريثت، فالحروف تتشابه والأسماء تتشابه، لكن الحرف المجرور كهلال معكوس لا يجيده إلا عجوزها الشاب المتحمس يومذاك لمنحوتة وحب عنيف وطويل، والنقطة المدورة محفورة بعناية والتاريخ الصغير أسفل القلب كما هو باقٍ يدوّن قيمة اللقاء وقِدمه.

- وينك يا رجل... تعال..!

نظرت إلى خمسين سنة مضت ووجدتها أمامها كما هي سوى من حروق طفيفة أحاطت بها وكانت بلون القهوة على جذعٍ مقصوص ومطروح على العشب.

- يا رجل.. وينك؟

التفتت إلى أكثر من جهة، كما لو أنها في غابة فارغة، غير أن شابين كانا قريبين منها يحملان كماناً بلا أوتار لم تنتبه إليهما، سارعا إليها حينما وجداها تدور حول نفسها بطريقة بعثت فيهما الحماسة لمساعدتها.

- تنادين أحداً؟

تساءل أحدهما باهتمام.

- ها.. نعم..

قال الآخر:

- لا أحد هنا.

وقال الثاني:

- الغابة فارغة.

سارعتْ:

- لا.. إنه هنا.

التفت الشابان إلى جهات المكان، فلم يجدا أثراً لشخص آخر.

انتبهت السيدة زمن إلى الحال المفاجئة التي كانت فيها، فتصنعت الابتسامة وقلبها يخفق ويضطرب شاعرة بالإحراج، إلا أنها مسّت كتفي الشابين بحنو:

- آسفة.. لم أقصد.. لكنه موجود..

انصرف الشابان وهما يمطّان شفاههما ويهمسان لبعضهما، لكنهما بقيا يلتفتان إليها بين لحظة وأخرى. فعادت السيدة متفقدة المكان وحريصة على ألا تغادر الجذع، فقد لا تجده أو تضل الطريق إليه بين الجذوع المقطوعة، لاسيما وأن ظلال الغروب هبطت كثيراً بعتمتها الأولى، لذا بقيت أنظارها تتجه إلى كل مكان، بحثاً عن العجوز الذي اختفى بين أشجار الغابة.

كان الظلام الأول يخيفها.

أمسكت قلبها النابض بعنف.

وبقيت تتطلع إلى أكثر من جهة.

شمس الغروب الذهبية

(1)

أكثر من أغنية محلية راقصة صدحت في الفضاء البارد وبددت السكون الشامل، وكان عدد من الشباب يتخاطفون بين المماشي والممرات بمسجلات صوت عالية أضجرت العجوز، وقد ضايقته سماعة أذنه التي تُضَخّم الأصوات وشوّشت اندماجه في بحثه الدؤوب بين الجذوع الكثيرة.

نزع السماعة، وجلس على جذع ممدود وقد تكسرت معظم أغصانه وما سلِم منها غطس في الطين وبحيرات الحفر والبرك التي تملأ المكان.

دكّ حذاءه من الخلف على أسفل الجذع ليزيح الطين العالق الذي يُشعره بثقل يجرّه خلفه، وكانت الشمس في آخر انحداراتها بعد العصر، لذا بدت دافئة وطرية وذهبية كشفت الكثير من الجذوع وأضاءتها وهو يجلس على جذع عملاق مطروح يشكل قنطرة عبور بين البحيرات الصغيرة؛ شاعراً بالتعب وقلبه يخفق.

انخفضت الموسيقى الفوضوية وهي تبتعد مع الشباب، وقلّ الصخب كثيراً من حوله، وبقي يتقولب في فراغ يطن في أذنه خالية السماعة، وكان يرقب الشعاع النازل على الجذوع التي شعّت بضوء الشمس المنحدر فحوّل الجذوع إلى قطع ذهبية بارقة، وهو ما لفت انتباه العجوز الذي أعاد وضع نظارته على أنفه حينما انكشفت أمامه حروف متوهجة وقلوب بارزة وكتابات محفورة غسلها المطر فبرّزها محددة بأطرها المحفورة، مثلما حددها

صفاء الشمس الذهبية، فترك الشجرة وأحنى ظهره كثيراً متأملاً بقلب خافق حرفاً بارزاً ناصعاً مجروراً بعناية داخل قلب صغير، ترتكز فوقه نقطة دائرية منقوعة بالمطر.

(2)

اقترب أكثر، ووضع ركبتيه على الطين، وهو يعيد قراءة الحرف المنسرح برشاقة، ويخرج قليلاً من القلب المحفور، ونقطته تتلألأ فيها الشمس الغاربة كحفرة ناعمة تمتص قليلاً من الشمس الذهبية.

ارتبك قليلاً وهو يقبض على الذاكرة البعيدة بطريقة المصادفة النادرة، فصاح بلا اتجاه محدد، والشمس التي تنزل متمهلة سحبت معها الضوء الذهبي قليلاً:

- زمن.. زمن.. تعالي زمن.. وجدته.

حاول أن يهرع إلى أي مكان لجلب السيدة التي ابتعدت عنه منذ ساعة تقريباً، غير أنه خشي ألا يعود إلى الجذع ذاته، وقد يفقد الدليل إليه مع الشمس التي بدأت تغطس في أفقٍ بعيد، فظل يعيد اسمها مع الصمت الذي غطى الغابة إلى حد كبير، ولم ينتبه إلى شابين كانا يحملان كماناً بلا أوتار مرا بقربه يخوضان في الطين ومياه البحيرات الراكدة وهما يضحكان ويصوران بعضهما بالموبايلات.

- هل تنادي أحداً يا عم..؟

انتبه العجوز إليهما وأنفاسه تختلج:

- لا.. ستأتي.. إنها قريبة.

تساءل الشاب الثاني:

- مَن هي..؟

بقي ينظر إليهما بذهول وقد ابتلع صوته، كأنه غير قادر على أن يقول كلمة أخرى.

قال أحد الشابين:

- لا أحد هنا.. أنت وحدك يا عم.

نظر إلى الشابين بتوسل وقشعريرة مثلجة تداهمه، فوجد نفسه كشجيرة صغيرة ترتعش مع الغروب المنسدل وحلول الظلام.

تشبث بباينباغه الممدود على صدره، لكن تخاذلت ركبتاه نسبياً، وانتشر ضباب سريع في عينيه، ولم يعد جسده قادراً على حمله، وهو آخر ما كان يعيه حين برك على ركبتيه فلسعه الطين البارد وتسرب الماء إليه، وكان الشابان ينظران إلى بعضهما بدهشة قبل أن يقول العجوز باستسلام:

- لا عليكما.. أخبروها أنني هنا.. وقد وجدت حرفها العظيم.

كان آخر شعاع للشمس يهبط وراء الأشجار، واكتنف الحديقة مساء سريع بظلال سوداء، تسرّب بطريقة سريعة وغطّى على الجذوع المهجورة في كل مكان، ولم تعد الأضواء المترامية بين الأكشاك وحديقة القرود كافية لإضاءة الغابات الصغيرة المتوزعة حتى آخر الجدار.

تمسك بالجذع وأصابعه تقبض على الحرف الذهبي بقلب يخفق بقوة، وشعر أن الطنين في أذنيه بدأ يخفت، فبقي يتطلع إلى أكثر من جهة بعينين ضعيفتين متوسلتين خذلتهما العتمة النازلة التي أخفت سيدته المتشبثة

بالجذع المقصوص وهي تتهاوى في مكانها ببطء، حريصة على ألا تسقط دفعة واحدة ويتشتت بياضها الناصع.

بقيتْ يدها اليسرى ترتعش على قلبها المضطرب، وأصابع يدها الأخرى تتشبث بجذع مذبوح وحرف قديم.

بغداد

2017-10-31
2017-11-5

امرأة بنقطة واحدة .. رواية حب بامتياز

هذه رواية حب غريبة وفريدة من نوعها تطوي خمسين عاماً من حب جميل عاشه رجل وامرأة بلغ بهما العمر سبعين عاماً ، فذهبا يبحثان عن نقطة حب قديمة في أشجار قديمة بحديقة عامة تتوسط العاصمة بغداد ؛ غير أنهما يجدا أن الزمن تغير في تاريخ الأشجار حيث تراكمت النقاط المحفورة والخطوط المائلة ومدونات الحب المتواصلة والتي لم تنقطع طوال خمسين سنة مضت.

هذه الرواية هي البحث عن حرف بنقطة واحدة وهو حرف الـ (ز) وعن ذكرى امرأة كانت هنا ذات يوم متجسدة بتواريخ عشق ومنحوتة فنية تجسد الزمن الآتي الذي تنبأ به نحّات الرواية كشخصية ذات حضور ملهم وقوي ابتكرت حضورها بطريقة ناجحة وتواصلت مع الحياة بالرغم من منقلباتها الكثيرة التي عصفت بأرض الرافدين.

في الرواية حرف ضائع وزمن ضائع وسط ركام الحياة ومتواليات الحروب التي عاشها العراق ، فالأزمان المتعاقبة بالحروب لم تترك أثراً جميلاً في الحياة اليومية فمسخته الشظايا وشطبت على الكثير من حروف العشق ونقاطه البريئة ، غير أن الزمن بحرفه الوحيد يعود بأسطورة البحث عن الجمال في تاريخ الأشجار العالية حتى تحدث أكثر من مفاجأة حينما ينتهي البحث عن ذلك الحرف الرمزي بطريقة أرادها الروائي أن تكون مفاجئة وغير متوقعة.

امرأة بنقطة واحدة .. رواية حب بامتياز .. والـ ز .. هو زمن الحب بامرأة لاسمها نقطةٌ واحدة.

الناشر

ISBN 978-9933-38-033-5
9 789933 380335

نينوى للدراسات والنشر والتوزيع

جملون
متوفر ايضاً في eKtab
نيل وفرات.كوم nwf.com